هنري ميللر

رامبو
وزمن القَتَلَة

ترجمة: سعدي يوسف

مكتبة بغداد

منشورات الجمل

هنري ميللر

رامبو
وزمن القَتَلَة

ترجمة: سعدي يوسف

منشورات الجمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هنري ميللر: رامبو وزمن القَتَلَة ، ترجمة: سعدي يوسف
الطبعة الأولى ٢٠١٢
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٢
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Henry Miller: The Time of the Assassins: A Study of Rimbaud,
New York: New Directions, 1956

© *Al-Kamel Verlag 2012*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

١

تمهيد

في تشرين الأول، الماضي، بالضبط، كان مرّ على ميلاد رامبو، مائة عام.

في فرنسا كان الاحتفال بالذكرى المئوية مثيراً، إذ دعي كتّاب مشهورون، من مختلف أنحاء العالم، ليحجّوا إلى «شارلفيل» مسقط رأس رامبو. واتخذت الاحتفالات طابع مناسبة وطنية.

منذ وفاة رامبو، ترجمت أجزاء من آثاره الكثيرة إلى لغات عديدة، بينها التركية والبنغالية. وحيناً كان ما يزال ثمة إحساسٌ بالشعر والمغامرة الكبرى، فإن اسمه على طرف كل لسان.

وفي السنوات الأخيرة، انتشرت العبادة الرامبوية انتشاراً مدهشاً، وازداد الأدب المكرّس لحياته وآثاره، واتسع بصورة قفزات ومسافات.

ولا يمكن القول إن شاعراً من العصر الحديث قد لقي نفس هذا الانتباه والاهتمام.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

باستثناء «فصل في الجحيم» و«الإشراقات»، لم تجد سوى قصائد قليلة طريقها إلى لغتنا، وحتى هذه الترجمات القليلة تكشف عن تفسيرات متنوعة، واسعة، ولا بد منها.

لكن، مهما كان أسلوب رامبو، صعباً، عصياً، فإن هذا لا يعني أن رامبو ممتنع على الترجمة. إلا أن إنصاف آثاره أمرٌ آخر.

وعلينا، في اللغة الإنجليزية، أن ننتج شاعراً قادراً على أن يقدم لرامبو، ما قدمه بودلير لـ«بو»، أو نرفال لـ«فاوست»، أو موريل ولاربو لـ«يوليسيس».

وأود أن اوضح أنّ هذه الدراسة الصغيرة، المكتوبة قبل عشر سنوات، كانت نتيجة الإخفاق في ترجمة «فصل في الجحيم» بالصورة التي أردت.

وما يزال يراودني الأمل في إعطاء هذا النص، اللغة الأكثر قرباً من اللسان «الزنجي» لرامبو.

إن مؤلفي الأغاني الزنجية ـ بالرغم من أنهم لا يعلمون ـ هم أقرب إلى رامبو، من الشعراء الذين عبدوه وقلّدوه.

لقد بدأنا، الآن فقط، نفهم ما فعله رامبو للّغة، وليس للشعر وحده. هذا الفهم يجري بين القراء أكثر من الكتّاب، في بلادنا، بالأقل، كما أشعر.

إن كل الشعراء الفرنسيين المحدثين، تقريباً، قد تأثروا برامبو.

بل يستطيع المرء القول إن الشعر الفرنسي الجديد يدين بكل شيء لرامبو. لكن لم يستطع أحد تجاوزه، في الجرأة والإبداع. والشاعر الحي الوحيد القادر على منح شيء يقترب من بهجة رامبو وإثارته هو: سان جون بيرس.

والنص هذا، ظهر، في الأصل، في قسمين من إصدارات «نيودايركشنز» السنوية، تحت رقمي ٩ و١١. ومنذ ذلك الحين ظهر بالفرنسية والألمانية، وكانت هاتان الطبعتان في سويسرا، البلد الذي لا يستطيع المرء ربطه بعبقرية رامبو.

وفي هذه الطبعة، جرى تغيير في ترتيب القسمين. ويمكنني أن أضيف أنني اعتزمت، أصلاً، كتابة قسمين آخرين، لكنني تخليت عن تلك الفكرة.

وأنا أعتقد، مخلصاً، بأن أميركا تحتاج إلى التعرف على هذا الكائن الأسطوري، الآن، أكثر من أي وقت مضى. (والمسألة هي نفسها بالنسبة لشاعر فرنسي خارق آخر، انتحر قبل مائة عام في كانون الثاني الماضي، هو جيرار دي نرفال).

ولم يمرّ على أميركا حينٌ من الدهر كان وجود الشاعر فيه مهدداً، كما هو الأمر الآن. إن الأنواع الأميركية، مهددة حقاً بالزوال، سوياً، وفي آنٍ.

عندما سمع كنيث ريكسروث بالموت المبكر لـ«دايلان توماس»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أطلق «تذكارية» عنوانها «أنت لن تقتل» كتبها في بُحران وهجٍ أبيض، ولم يكن يقصد نشرها، لكنها وزعت فوراً، وترجمت إلى عدد من اللغات.

إن كان لدى أي امرئ، أية شكوك، حول المصير الذي يخبئه مجتمعنا للشاعر، فليقرأ هذه «التذكارية» عن الشاعر الويلزي الذي كتب «صورة الفنان جروزاً».

إن منزلة الشاعر وحالته ـ وأنا أستخدم الكلمة بمعناها الواسع، والدقيق كذلك ـ تبيّن، بدون شك، الوضع الحقيقي لفاعلية شعب ما.

في الصين واليابان والهند وإفريقيا، إفريقيا «البدائية»، نرى الشعر ما يزال غير قابل لأن يُمحى. ومن يعوزنا، بصورة واضحة، في هذه البلاد، بل من لا نحسّ حتى بأنه يعوزنا، هو: الحالم، المجنون الملهم.

أية أغنية للغول، سنسمع، حين يأتي زمن، نهيل فيه التراب، على هذا؟. هل سنركز انتباهنا على «عدم تكيف» الفرد المتوحد، وهو المتمرد الحقيقي في مجتمع عفن!

بينما هؤلاء الأشخاص أنفسهم، هم الذين يمنحون مغزى لمصطلح «عدم التكيف» الذي يساء استعماله.

في مقالة عن «سياسة بودلير» نشرتها مجلة «بوزار» في ٢٥

كانون الثاني ١٩٥٥، كتب موريس نادو ما يأتي: «في قلبي العاري إحساس دائم بالغربة عن العالم وطقوسه. إنه عالم البورجوازية حيث اخلاقية الصرّاف، المرعبة. عالم الغيلان الجائع إلى ماديات، المفتون بنفسه، غير المدرك أنه داخلٌ الإنهيار، العالم الذي نعرف بنبوءة منفردة أنه سائر نحو التأمرك، منذورٌ للحيوانية».

الأمر المؤثر لدى شعراء القرن التاسع عشر البارزين، وكذلك لدى شعراء القرن العشرين البارزين، هو نغمتهم النبوية. لكن شعراءنا المتأخرين ـ خلافاً لـ«بليك» و«ويتمان» ذوي النظرة الكونية ـ يسكنون أعماق الغابة السوداء. إن سحر العهد الألفيّ السعيد الذي سيطر على ذوي الرؤى أمثال جواكيم دي فلوريس، وهيرونيموس بوش، وبيكوديلا ميراندولا، والذي ما يزال إغراؤه ماثلاً أكثر من السابق، هذا السحر استبدلت به عبودية الخراب التام.

وفي دوامة العتمة والفوضى القادمتين، ينسحب شعراء اليوم، واشمين أنفسهم بلغة خفية، تغدو أكثر فأكثر، غير ممكنة الفهم.

وبينما ينطفئون، الواحد تلو الآخر، تنحدر البلدان التي أنجبتهم، نحو قدرهم ومصيرهم.

إن فعل القتل، سيبلغ غايته سريعاً، وعندما يختنق صوت الشاعر، يفتقد التاريخ معناه، وينفجر وعد الدينونة، مثل فجر جديد مخيف، على وعي الإنسان.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآن فقط، وعلى حافة الصراط، يمكن أن ندرك أن «كل ما عُلمّناه زائف»، إن برهان هذه المقولة المدمرة بارز، كل يوم، وفي كل مكان: في ساحة القتل، والمختبر، والمصنع، في الصحافة، والمدرسة، والكنيسة.

إننا نحيا، إطلاقاً، في الماضي، نتغذى بأفكار ميتة، ومعتقدات ميتة، وعلوم ميتة. الماضي هو الذي يستحوذ علينا، لا المستقبل. فالمستقبل كان دائماً يعود، وسيعود دائماً الى ـ الشاعر.

حين أفلت رامبو من العالم، فلربما أنقذ روحه من مصير أسوأ مما كان مقدراً له في الحبشة. ولربما قدمت لنا قصيدة «الصيد الروحي» ـ لو قُدّر لها أن تستنقذ من التراب ـ مفتاحاً مفقوداً. ومن يدري؟ فلربما أعطتنا حلقة الوصل بين «فصل في الجحيم» و«عيد ميلاد على الأرض»، هذا العيد الذي كان يوماً، واقعاً، لدى الحالم المراهق.

في اللغة الرمزية للروح، وصف رامبو كل ما يحدث الآن. وفي رأيي أن ليس ثَمّة تنافر بين رؤياه للعالم وللحياة الأبدية، وبين رؤى مجددي الدين العظام.

إننا مدفوعون، المرة تلو المرة، إلى أن نخلق رؤيا جديدة للسماء والأرض، أن ندع الموتى يدفنون الموتى، أن نحيا أشقاء في الجسد، أن نجعل عيد الميلاد الأرض واقعاً. وإننا لمحذّرون،

المرة تلو المرة، إن لم تصبح شهوة الحياة الجديدة قناعة حية لكل واحد منا، وأي واحد منا، فإن الوجود الأرضي لن يكون أكثر من مَطْهرٍ أو جحيم.

إن السؤال الواحد الأحد الذي يواجهنا هو: إلى أي مدى نستطيع تأجيل الحتميّ؟

ترى ماذا علينا أن نقول، حين نفكر بأن ولداً غرّاً هزَّ العالم من أذنيه؟

أليس ثمة أمر معجزٌ في ظهور رامبو على هذه الأرض؟ شأنه شأن يقظة غوتاما، وتقبّل المسيح الصليب، ورسالة خلاص جان دارك المذهلة؟

فسِّرْ عمله كما شئت، إشرح حياته كما أردت.. وسيظل نوراً لا يشحب. فالمستقبل كله له، حتى لو لم يكن أمامنا مستقبل.

هنري ميللر ـ ١٩٥٥

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٢

تناظرات، قرابات، إلتقاءات، أوجاع

كان ذلك عام ١٩٢٧، في القبو الغائر، بمنزل قذر، في بروكلين، حين سمعت للمرة الأولى اسم رامبو. كان عمري ستة وثلاثين عاماً، وكنت في أعماق «فصل الجحيم» المديد، الخاص بي، وثمة كتاب عن رامبو في المنزل، لكني لم أنظر إليه مرة. وكان السبب أني أكره المرأة صاحبة الكتاب، والتي كانت تسكن معنا.

كانت في الملامح، والمزاج، والسلوك ـ مثلما اكتشفت مؤخراً ـ تشبه رامبو، كما يمكن أن يتخيل المرء.

وكما قلت، بالرغم من كون رامبو مادة الحديث الدائمة بين ثلما وزوجتي، فإني لم أبذل جهداً لمعرفته. والحق إنني ناضلت كالشيطان نفسه حتى أبعده عن خاطري، وبدا لي، آنذاك، أنه العبقري الشرير، المسبّب كل ضيقي وبؤسي.

ولاحظت أن ثلما، التي أبغضها، كانت تكتسب هويتها منه،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقلدةً إياه، قدر استطاعتها، لا في السلوك، فحسب، بل في نوع الشعر الذي تنظمه. لقد تآمر كل شيء، كي أرفض اسمه، وتأثيره، وحتى وجوده. كنت آنذاك في أسفل السافلين، وكانت معنوياتي محطّمة تماماً.

وأتذكرني جالساً في القبو البارد الرطب، محاولاً الكتابة في ضوء شمعة خافقة، وبقلم رصاص. كنت أحاول كتابة مسرحية تتناول مأساتي أنا، فلم أفلح في تجاوز الفصل الأول أبداً.

في حالة اليأس والعقم هذه، كنت، بصورة طبيعية، شديد الارتياب، بعبقرية شاعر في السابعة عشرة.

وبدا كل ما سمعته عنه، من اختراع ثلما المخبولة.

وكنت قادراً على الاعتقاد بأنها تستطيع استنباط وسائل ماكرة لتعذيبي، ما دامت تكرهني، مثلما أكرهها.

كانت الحياة التي عشناها، نحن الثلاثة، والتي تحدثت عنها طويلاً في «الصليب الوردي» مثل حادثة في إحدى قصص دوستويفسكي، غير واقعية، غير قابلة لأن أصدقها، الآن.

لكن المسألة، هي أن اسم رامبو، قد التصق.

وبالرغم من أنني لم أقم حتى بإلقاء نظرة على عمله، إلا بعد ست سنوات أو سبع، في منزل «أنيس نين» بـ«لوڤيسين»، غير أن حضوره، كان مغي دائماً. كما أن تعارفنا كان مقلقاً:

«سوف تلتقي معي يوماً». هذا ما ظل صوته يردده في أذنيّ.

ويوم قرأت أول بيت لرامبو، تذكرت فجأة، أنه من «المركب السكران» القصيدة التي طالما هذت بها ثلما.

المركب السكران!

كم يبدو هذا العنوان معبراً في ضوء كل ما عانيته لاحقاً!

في هذا الوقت، ماتت ثلما في مستشفى مجانين، ولو لم أذهب أنا إلى باريس، وأبدأ العمل الجاد هناك، للقيتُ المصير نفسه. لقد غرقت سفينتي في ذلك القبو بأعالي بروكلين. وعندما تهشمت عارضتها الرئيسية، واندفعتُ نحو البحر المفتوح، أدركت أنني كنت حراً، وأن الموت الذي مررت خلاله.. قد حرّرني.

إن كانت تلك الفترة في بروكلين تمثل «فصل - ي - في الجحيم»، فإن الفترة الباريسية، وبخاصة من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٤، كانت فترة «إشراقات» ي.

عندما وقعت على عمل رامبو، في ذلك الحين، كنت أكتب بغزارة، واندفاع، وهياج، لذا أبعدته جانباً.

كانت إبداعاتي أكثر أهميةً لديّ.

فبمجرد إلقائي نظرة على كتاباته، عرفت ما ينتظرني.

لقد كان الديناميت الصرف.

لكن عليّ أولاً، أن أقذف بإصبع ديناميتي الخاص.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

آنذاك، لم أكن أعرف شيئاً عن حياته، سوى النتف التي التقطتُها من ثلما قبل سنين.

لذا، كان لزاماً عليّ أنِ أقرأ سيرته.

وحدث هذا سنة ١٩٤٣، أثناء سكني في بڤرلي جلن، مع جون ددلي، الرسام.. إذا قرأت للمرة الأولى عن رامبو.

قرأت «فصل في الجحيم» لجان ماري كاريّه. ثم كتاب انيد ستاركي.

لقد استحوذ عليّ، وعقد لساني. وبدا لي أنني لم أقرأ أبداً عن حياة ملعونة كحياة رامبو. نسيت عذاباتي، التي تفوق عذاباته كثيراً. نسيت الإحباطات والمهانات التي عانيتها، وأعماق اليأس والعجز التي غرقت فيها، مرة بعد أخرى، وغدوت مثل ثلما، في تلك الأيام.. لا أستطيع التحدث إلا عن رامبو. وكان على كل من يزورني أن يصغي إلى أغنية رامبو.

الآن فقط، بعد ثماني عشرة سنة من سماعي اسمه للمرة الأولى، أستطيع أن أراه بوضوح، وأن أقرأه قراءة المتبصر، الآن أعلم كم عظيمة كانت مأثرته، وكم رهيبة كانت محنه. الآن أفهم مغزى حياته وعمله ـ بقدر ما يستطيع أحد القول إنه يفهم حياة وعمل الآخر. لكن ما أراه بوضوح أشد، هو كيف نجوت، بمعجزة، من معاناة المصير الرديء نفسه.

عانى رامبو أزمته العظمى عندما كان في الثامنة عشرة، حينها بلغ حدّ الجنون، ومنذ ذلك الحين غدت حياته صحراء لا تنتهي. أما أنا فبلغت الحدّ بين السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين.. العمر الذي مات فيه رامبو. ومنذ ذلك الحين بدأت حياتي تزدهر. رامبو تحول من الأدب إلى الحياة. أنا فعلت العكس. رامبو هرب من السعالي التي خلقها، أما أنا فقد عانقتها. لقد صحوت من حماقة وضياع الممارسة المجردة للحياة. هكذا توقفت، ووجهت طاقاتي وجهة الإبداع. واندفعت في الكتابة، بنفس اللهفة والحرارة اللتين وسمتا اندفاعي في الحياة. وربحت الحياة بدل أن أضيعها، وحدثت المعجزات، واحدة إثر الأخرى. بُدِّلَ كل حظ عاثر خيراً. أما رامبو، فبالرغم من اندفاعه في أرض مناخات ومشاهد لا تصدّق.. في عالم فانتازيا غريب وبهيّ كقصائده، إلا أنه غدا أكثر مرارة وانغلافاً وفراغاً وأسى.

رامبو أعاد الأدب إلى الحياة. أنا أردت أن أعيد الحياة إلى الأدب.

ولدينا نحن الاثنين تقوى الخاصية الاعترافية، والانشغالات الأخلاقية والروحية. كما أن التلذذ باللغة والموسيقى أكثر من الأدب، صفة مشتركة بيننا. مع رامبو أحسست بطبيعة بدائية تعبِّر عن نفسها بطرق غريبة. وصف كلوديل رامبو بأنه «صوفي في حالة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

متوحشة»، هو وصف ليس له مثيل. إن رامبو لا «يعود» إلى أي مكان. وكان لديّ هذا الإحساس ذاته إزاء نفسي.

التناظرات لا تنتهي، وسوف أتناولها ببعض التفاصيل، ذلك لأنني في قراءة السير والرسائل رأيت وجوه الشبه واضحة إلى حد جعلني لا أقاوم تدوين ملحوظات عنها. ولا أظنني فريداً... في هذا، بل أعتقد أن في العالم، الكثير من رامبو وأن عددهم يزداد مع الزمن. وأرى أن النمط الرامبوي سيحل في المستقبل محل النمط الهاملتي أو الفارسي.

إن الاتجاه سائر نحو انشطار أعمق، وإلى أن يموت العالم القديم نهائياً، فإن الفرد «الشاذ» سيكون، أكثر فأكثر، هو النموذج. ولن يجد الإنسان الجديد نفسه إلا حين تنتهي الحرب بين الجماعية والفرد. آنذاك سوف نرى النمط الإنساني بكل امتلائه وبهائه.

* * *

من أجل أن نعرف «فصل في الجحيم» معرفة كاملة، هذا الفصل الذي امتد، لدى رامبو، ثماني عشرة سنة، علينا أن نقرأ رسائله. لقد أمضى معظم هذا الوقت على الشاطئ الصومالي، وفي عدن عدة سنوات. وفي ما يأتي وصف للجحيم على الأرض، من رسالة إلى أمه:

«لا تستطيعين أن تتخيلي المكان: فلا شجرة، حتى ولو كانت

ذاوية. ولا تربة. إن عدن فوهة بركان خامد مليئة برمل البحر. إنك لا ترين إلا الحمم والرمل في كل مكان، هذه التي لا تُنبت أضأل نبت، وهي محاطة برمال الصحراء. وهنا تصدُّ فوهة بركاننا الخامد، الهواء. وإننا لنشوى كما لو كنا في فرن جيريّ».

كيف رضي إنسان عبقري، مفعم بالطاقات العظيمة، أن يسجن نفسه، مشوباً، متلوياً، في غار تعس كهذا؟

أمامنا، هنا، رجل لم تكن تكفي لديه ألف حياة لاكتشاف عجائب الأرض.. لكننا نراه، عاماً بعد آخر، مقطوعاً في هذا الغار الجهنمي. كيف تفسر الأمر؟

نحن نعلم، بالطبع، أنه كان يصارع الأغلال، ويدبر تدابير لا تحصى، ومشاريع من أجل أن يعتق نفسه، ليس فقط من عدن، ولكن من كل عالم الكدح والعرق. إن رامبو، وهو المغامر، كان مسكوناً بفكرة الانعتاق التي ترجمها بصيغ الأمان الماليّ، في الثامنة والعشرين يكتب إلى أهله أن الأمر الأكثر أهمية وإلحاحاً لديه، هو أن يغدو مستقلاً، في أي مكان كان. لكنه حذف ما ينبغي أن يضيفه وهو: وبأي طريقة كانت. كان مزيجاً غريباً من الوقاحة والحياء. كانت لديه الجرأة على المغامرة في أراض لم تطأها قدما رجل أبيض، ولكن لم تكن لديه شجاعة مواجهة الحياة بدون دخل ثابت. كان لا يخاف أكلة لحوم البشر، لكنه يخاف أشقاءه البيض.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مع أنه كان يحاول جمع ثروة مريحة، يستطيع أن يسافر بسببها، ويطوف العالم، متمتعاً، مرتاحاً، أو أن يستقر في مكان ما حين يجد البقعة المناسبة، إلا أنه ظل الشاعر والحالم، والإنسان غير المتكيف مع الحياة، الإنسان المؤمن بالمعجزات، الباحث عن الفردوس بشكل أو بآخر.

كان يعتقد أولاً أن خمسين ألف فرنك ستكون كافية لتأمين نفسه طيلة حياته، لكنه، ما إن كاد يجمع هذا المبلغ حتى قرر بأن مائة ألف هي التي تجعله أكثر أماناً.

هذه الفرنكات الأربعون ألفاً! أي زمن مفزع بائس قضاه، وهو يحمل خميرته معه! لقد كانت هذه الفرنكات دماره عملياً، عندما حملوه من «هرر» إلى الساحل على محفة ـ وهي رحلة تمكن مقارنتها بدرب الآلام ـ هو الذي يبقيه مستيقظاً ليالي عديدة، فإنه التفكير بماله الذي يرتديه والذي عليه أن يخفيه حتى لا يسرقه أحد. كان يريد إيداعه في مصرف، لكن كيف يستطيع الذهاب إلى المصرف، وهو لا يستطيع المشي؟ إنه يكتب إلى بيته حتى يأتي أحدهم ويعتني بالكنز الثمين.

ثمة شيء فاجع ومضحك في هذا الأمر، بحيث لا يعرف المرء ماذا يقول أو يرى... أكثر.

لكن ماذا كان أصل جنون الأمان هذا؟

إنه الخوف الذي يعرفه كل فنان مبدع: إنه غير مرغوب فيه، ولا يفيد العالم بشيء. كم تحدث رامبو في رسائله عن كونه غير صالح للعودة إلى فرنسا واستئناف حياة المواطن العادي. لا تجارة لدي، لا حرفة ولا أصدقاء هناك. هكذا كان يقول. ومثلما يفعل كل الشعراء، كان يرى العالم المتمدن غابة، لا يدري كيف يحمي نفسه فيها.

ويضيف أحياناً أن من المتأخر الآن التفكير بالعودة ـ إنه يتكلم دائماً كما لو كان شيخاً! ـ لقد اعتاد، تماماً، الحياة الحرة المتوحشة المغامرة، بحيث لم يعد يستطيع العودة إلى أن يسرَج. كان أكثر ما يكرهه: الكدح الحلال، لكنه في أفريقيا، وقبرص، والجزيرة العربية كان يكدح مثل زنجي، مقتراً على نفسه في كل شيء، حارماً إياها حتى من القهوة والتبغ، مرتدياً «الدشداشة» القطنية ذاتها، موفراً كل قرش يربحه، أملاً في أن يستطيع شراء حريته يوماً، ونحن نعرف، أنه حتى لو نجح، فلن يشعر بالحرية، لن يكون سعيداً، لن يرفع عنه نير الضجر. لقد تحول من اندفاع الشباب إلى حذر الشيخ. كان تماماً، الطريد، والمتمرد، والملعون، الذي لا يمكن أن ينقذه شيء.

إنني أشدد على هذه الناحية في طبعه، لأنها تفسر العديد من التصرفات السيئة المنسوبة إليه. لم يكن شحيحاً، ولا فلاحاً في قلبه، كما يقول بعض كتّاب سيرته. لم يكن قاسياً على نفسه. كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فعلاً، كريم الطبع. يقول باردي احد مستخدميه القدماء «كان إحسانه بذلاً طبيعياً غير مدّع، وربما كان هذا الإحسان من الأمور القليلة التي يفعلها دون ازدراء أو استخفاف».

وثمة فزّاعة أخرى، كانت تؤرق أيامه ولياليه: الخدمة العسكرية. فمنذ أن بدأ تطوافه، حتى يوم وفاته كان يعذبه الخوف من السلطات العسكرية. ولقد كان، حتى قبل أشهر من موته، في مستشفى مارسيليا، وهو مبتور الساق متضاعف الآلام... خائفاً من أن تكشف السلطات العسكرية مكانه، وترسله إلى السجن. كان هذا الخوف يرهقه كالجذام. «أيكون السجن ما سأعانيه؟ إن الموت أفضل!»، كان يرجو أخته ألا تكتب إليه إلا في الضرورة الماسة، وأن تكتب، عنوانه باسم «رامبو» فقط، لا آرثر رامبو، وأن تبعث برسائلها من مدينة مجاورة لمدينتها.

إن نسيج شخصيته ليبدو أمامنا عارياً في هذه الرسائل الخالية تماماً من أي قيمة أدبية أو فتنة. إننا لنرى فيها جوعه العارم إلى التجربة، وحب استطلاعه الدائم، ورغباته التي لا تُحدّ، وإيذاءه النفس، وزهده، وقناعته، ومخاوفه، وكوابيسه، وضيقه وتوحّده، وإحساسه بالنبذ. ونرى فوق هذا كله أنه كان مثل كل الأفراد المبدعين، غير قادر على ان يتعلم من أننا نراه ضحية توهّم أن الحرية يمكن نيلها بوسائل خارجية. نراه يظل المراهق طيلة حياته، رافضاً قبول المعاناة أو إعطاءها القيمة. ولكي نقدّر فداحة إخفاقه

في نصف حياته الأخير، علينا، أن نقارن تطوافه بتطواف كابيزا دي ڤاكا.

لكن، دعونا نتركه وسط الصحراء التي خلقها لنفسه. وقصدي، الإشارة إلى تناظرات وقرابات ومراسلات وأرجاعٍ معينة. لنبدأ بوالديه: مثل السيدة رامبو، كانت أمي، امرأة شمالية، باردة، نقّادة، متكبرة، غير متسامحة، وطُهرية. أما أبي فكان جنوبياً، من والدين باڤاريين، بينما كان والد رامبو بورجندياً. وكان هناك صراع وخلاف مستمران بين الأم والأب، مع الأرجاع المعتادة على الإبن. إن الطبع المتمرد، ذا المراس الصعب الذي لا يمكن ترويضه، يجد هنا رحمة. ومثل رامبو، بدأتُ في وقت مبكر أصرخ: «لتمت الرحمة!» كان هذا، موت كل شيء يرضاه الوالدان ويقبلانه. ولقد امتد هذا حتى إلى أصدقائهما الذين كنت أهينهم أمامهما حتى حين كنت ولداً. ولم يتوقف العداء حتى وأبي على فراش الموت فعلاً... عندما بدأت أعرف كم أشبهه. مثل رامبو. كرهت مسقط رأسي، وسأظل أكرهه إلى مماتي. كان هاجسي المبكر أن أفلت من بيتي، والمدينة التي أمقت، والوطن ومواطنيه الذين لا يجمعني بهم جامع. مثله، أيضاً، كنت مبكر النضج، أردد القصائد بلغة أجنبية صغيراً. لقد تعلمت المشى والكلام قبل الأوان، وقراءة الصحيفة حتى قبل أن أذهب إلى روضة الأطفال. كنت دائماً أصغر تلميذ في الصف... وأفضل تلميذ، بل المفضل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لدى معلميّ ورفاقي. لكن، كنت مثله أيضاً، أحتقر الجوائز والهدايا التي تقدم لي، ولقد طردت من المدرسة، مراراً، بسبب سلوك منحرف. وبدا أن رسالتي في المدرسة هي السخرية من المعلمين والمنهج. كانت المدرسة، بكل ما فيها، سهلة جداً، وغبية جداً، بالنسبة لي. وأحسست أنني مثل قرد مدرب.

منذ طفولتي المبكرة كنت قارئاً نهماً. وفي عيد الميلاد كنت أطلب الكتب فقط... عشرين أو ثلاثين كل مرة. وإلى أن بلغت الخامسة والعشرين، أو ما يقارب ذلك، لم أغادر البيت أبداً بدون أن أتأبط كتاباً. كنت أقرأ وأنا واقف، وأنا في طريقي إلى العمل، وأحفظ مقاطع شعر طويلة من شعرائي المفضلين. وأتذكر أن «فاوست» غوته كان من بين هذه الكتب. أما النتيجة النهائية لامتصاص الكتب المستمر هذا، فكانت إلهابي لثورة أبدع، وحثّ رغبتي الراقدة في السفر والمغامرة، وجعلي ضد أهل الأدب. صرت أحتقر كل من يحيط بي مبتعداً بالتدريج، عن أصدقائي، وفارضاً على نفسي ذلك الطبع المتوحد المرير الذي لا يمكن أن يدعى صاحبه إلا فرداً «غريباً». ومن سن الثامنة عشرة (سنة أزمة رامبو) غدوت، بالتحديد، شقياً، محطماً، بائساً، يائساً، ولم يكن بالإمكان الخلاص من هذه الحال إلا بتغيير ظروفي تغييراً كاملاً. في الحادية والعشرين أفلتُ... لكن لوقت قصير. ومرة أخرى، مثل رامبو، كانت الهروبات المفتوحة أمامي، ذات نتائج خائبة تماماً.

وكنت، دائماً، أعود إلى بيتي، بإرادتي، أو بغير إرادتي... وفي وضع يائس دائماً.

كان يبدو أن ليس ثمة مخرج. اشتغلت بمعظم الأعمال الغريبة، وباختصار، اشتغلت في كل شيء لا يناسبني. ومثل رامبو في مقالع الحجر بقبرص، عملت بالرفش والمعول، عامل مياومة، متنقلاً، أفّاقاً. بل أشبهتُ رامبو حتى في هروبي من منزلي... إذ كنت أقصد ـ مثله ـ أن أحيا حياة طليقة، لا أقرأ فيها كتباً مرة أخرى، معتمداً في معيشتي على يديّ، أن أكون رجل الأجواء المفتوحة لا مواطن: حاضرةٍ أو مدينة. لكن لغتي وأفكاري كانت تخونني دائماً. كنت تماماً، الأديب سواء أردت هذا أم لم أرده. ومع أنني كنت أستطيع تدبير أمري مع أي فرد، كائناً من كان، وبخاصة الفرد العاديّ، غير أني أغدو، في آخر الأمر، الشخص المشكوك فيه.

وهكذا كانت زياراتي إلى المكتبة: أطلب دائماً الكتاب المغلوط. ومهما كانت المكتبة كبيرة. فإن الكتاب الذي أريده، لن يكون فيها... أو أن هذا الكتاب يمنع عني.

وبدا لي، تلك الأيام، أن كل ما أريده في الحياة، أو من الحياة، محرَّمٌ عليّ. طبيعي أنني كنت مذنباً في أكثر التجريمات عنفاً. إن لغتي التي كانت نابيةً، حتى وأنا طفلٌ ـ أتذكر أنني جُررت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى مركز الشرطة، في السادسة من عمري، لاستعمالي لغة سليطة ـ لغتي هذه، غدت، أكثر نبوّاً وسلاطة.

أي رجّة أحسست بها، حين قرأت أن رامبو، وهو شاب، كان يوقع رسائله بـ«ذلك التعس عديم القلب». كانت «عديم القلب» صفةً أغرمت بسماعها ملصقةً بي. ليست لدي مبادئ، ولا ولاءات، ولا قواعد سلوك... مهما كانت، وأستطيع حين يحلو لي الأمر أن أكون شديد القسوة مع الصديق والعدو على حد سواء. وعادةً، أجزي الحسنة بالإهانة والتجريح. كنت سافلاً، متغطرساً، غير متسامح، شديد التحامل، عنيداً بلا هوادة. وباختصار، كانت لي شخصية متميزة بأنها غير مقبولة، وصعبة المراس، عصية على التعامل معها.

وبالرغم من هذا، كنت محبوباً. وكان يبدو أن الناس شديدو التوق لأن يغفروا صفاتي السيئة مقابل البهجة والحماسة اللتين أوفرهما. لكن هذا الأمر لم يزدني إلا جرأة على حريات أخرى. وأتعجب، أحياناً، كيف أستطيع المضيّ في هذا الوضع. الناس الذين أحب، أن أهينهم وأجرحهم أكثر، هم الذين يرون أنفسهم خيراً مني، على هذا النحو، أو ذاك. إنني أشن على هؤلاء حرباً لا ترحم. تحت هذا كله، كنتُ مثلما تستطيع القول، ولداً طيباً.

كان مزاجي الطبيعي أنني فردٌ، عطوف، فرح، مفتوح القلب.

وفي فتوتي، كثيراً ما كنت أوصف بـ«ملاك»، لكن شيطان

التمرد استحوذ عليّ. في سن مبكرة جداً. كانت أمي هي التي زرعت هذا التمرد فيّ. لقد وجهتُ ضدها، وضد كل ما تمثله، طاقتي المتفجرة. ولم أشعر إزاءها بالحنان أبداً. إلى أن بلغت الخمسين من عمري.

ومع أنها لم تكن تقف بوجهي عادة (لأن إرادتي كانت الأقوى وحسب)، إلا أنني كنت أشعر دائماً بظلها يقطع الطريق عليّ. كان ظلاً من عدم الرضا، صامتاً منسرباً، مثل سمٍّ يزرق ببطءٍ في العروق.

ولقد دهشت حين قرأت أن رامبو سمح لأمه بقراءة «فصل في الجحيم». فأنا لم أحلم، البتة بأن أُري والديّ ما كتبته، أو حتى أن أناقش موضوع كتابتي معهما. وقد اعتراهما الرعب حين أخبرتهما، أول مرة، بأنني اخترت أن أكون كاتباً... كما لو أنني أخبرتهما باعتزامي أن أغدو مجرماً. لِمَ لا أستطيع أن أفعل شيئاً حصيفاً؟ شيئاً يمكّنني من تدبير معيشتي؟ إنهما لم يقرءا سطراً مما كتبت. وكانت مزحة دائمة أن يسأل أصدقاؤهما عني، ويستفسروا عما أعمل. «ماذا يعمل؟ آه يكتب...» كما لو أنهما يقولان إنه مخبول... يصنع فاصولياً من الطين... طوال النهار.

صورتُ لنفسي أن رامبو كان مدللاً في طفولته كفتاة، وفي صباه كـ«غندور». وهكذا كان الأمر معي. وباعتبار أن أبي كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خياطاً، فقط كان طبيعياً أن يهتم والدي بقيافتي. وعندما كبرتُ ورثت خزانة ملابس والدي الأنيقة النفيسة. كنا ذوي مقاس واحد. لكني، مثل رامبو، ثانيةً، خلال الفترة التي بدأت فرديتي تؤكد نفسها بقوة، أخذت أكبر نفسي، بصورة مضحكة، مقابلاً الاختلافات الداخلية بتلك الخارجية. وكنت، كذلك، موضوع سخرية في الحي الذي أعيش فيه. وآنذاك أتذكر إحساسي بالارتباك، وعدم الثقة بالنفس، وبالخجل من التحدث مع الرجال أياً كانوا. «لا أعرف كيف أتحدث!» هكذا هتف رامبو في باريس عندما كان محاطاً بالأدباء. لكن من يستطيع التحدث خيراً منه إذا انطلق؟ حتى في إفريقيا، عُرِف بأي طلاوة كان يتكلم أحياناً. كم أعرف هذه المعضلة جيداً! أي ذكريات مؤلمة لي عن التلعثم والتأتأة بحضرة رجال طالما تقت إلى التحدث معهم! لكني، من ناحية أخرى، حين أكون منفرداً، أستطيع التحدث بألسنة الملائكة. منذ الطفولة كنت أعشق صوت الكلمات، سحرها، وقدرتها الفتانة. غالباً ما ألجأ إلى تأثيرات صوتية، دافعاً مستمعيّ إلى حافة الهستريا. هذه الميزة، هي التي اكتشفتها، مصادفة، عند رامبو، لحظة نظري إلى صفحة من صفحاته. وثبت أثرها عندي كالطفلة. في بفرلي جلن، آن كنت منغمساً في حياته، سطرت بالطباشير أشعاره على الحائط ـ في المطبخ، في غرفة المعشية، في المغاسل، وحتى في البيت. إن تلك الأشعار لن تفقد قوتها لديّ أبداً. وكلما مررت بها

انتابتني الرعشة نفسها، والبهجة ذاتها، وذلك الخوف من فقداني العقل لو توقفت عندها طويلاً. كم عدد الكتّاب الذين يفعلون بك هذا؟ كل كاتب ينتج مقاطع تسكنك، أو أشعاراً تتذكرها، لكنها عند رامبو لا تحصى. إنها مبثوثة عبر الصفحات، مثل جواهر تساقطت من صدر منخول بالرصاص. هذه الهبة تجعل العلاقة مع رامبو، لا تنفصم. وهي وحدها التي أحسد رامبو عليها. واليوم، بعد كل ما كتبت، أجد رغبتي الأعمق في التخلص من الكتب التي ألفتُها، وفي أن أقفَ نفسي على خلق الهراء الخالص، الفانتازيا الخالصة. لن أكون الشاعر الذي هو رامبو، لكن ثمة أبعاداً خيالية شاسعة، ما يزال بالإمكان بلوغها.

والآن نأتي إلى «الفتاة بنفسجية العينين»، نحن لا نكاد نعرف عنها شيئاً. نعرف فقط أنها كانت تجربته الفاجعة الأولى في الحب، ولست أدري إن كان يعنيها، أو يعني ابنة صاحب المصنع، حين استخدم تعبير «مقدسة مثل ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جو بودلي حديث الولادة». لكني أعتقد جيداً أن رد فعله إزاء موضوع عاطفته، كان هكذا، على أي حال، أعرف أنها فتاتي، وأن لها أيضاً عينين بنفسجيتين. ومن المحتمل أني سأفكر بها ثانية مثل رامبو، على فراش الموت. كل شيء تلوّن بالتجربة الأولى الخائبة. والأغرب في الأمر كما يجب أن أضيف، أنها لم تكن هي التي رفضتني... كنت أهرب منها، وأتصور أن الأمر كان نفسه لدى رامبو. لديه، طبعاً،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ضغط كل شيء ـ حتى الثامنة عشرة ـ في مدة زمنية بالغة القصر إلى حد مذهل. ومثلما مرّ مسرعاً بكل عالم الأدب، في سنوات قليلة، مر بالتجربة الإعتيادية مسرعاً، وفي زمن قصير. كان يكفيه أن يذوق شيئاً، حتى يعرف مؤاده ومحتواه. وهكذا كانت حياته في الحب، ثانيةً، إلا في الحبشة، عندما اتخذ امرأة حبشيةً، عشيقة. ويحس المرء كما لو أن الأمر لم يكن حباً. وإن حدث شيء من هذا، فإن حبه كان موجهاً إلى صبية «جامي» من «هرر»، الذي حاول أن يخلف له وصية. ومن الصعوبة، بسبب الحياة التي عاشها رامبو، احتمال أنه أحبَّ ثانيةً، بملء قلبه.

روي عن ڤرلين أنه قال بأن رامبو لم يعطِ نفسه، البتة، سواء لإله أو لإنسان. أما مقدار صدق هذه المقولة، فبإمكان أي شخص أن يقدم حكمه الخاص، لكني أرى أنه لم يرغب احد في أن يعطي نفسه، مثلما رغب رامبو. لقد أعطى الله نفسه وهو طفلٌ، وأعطى العالمَ نفسَه وهو رجلٌ. وفي كلتا الحالتين أحسَّ بأنه قد تعرّض للخديعة والخيانة، فالتفَّ على نفسه، خاصةً بعد الكومونة... لكن أعماقه ظلت سليمة، غير مستسلمة، غير ممكنٍ بلوغُها. وهو يذكرني، هنا بـ«د. هـ. لورنس»، الذي ليس لديه الكثير ليقوله حلول هذا الموضوع، أي حول الحفاظ على أعماق الإنسان سليمةً.

منذ اللحظة التي بدأ فيها يعمل من أجل العيش، بدأت متاعبه الحقيقية. وبدت مواهبه كلها، وهو يملك الكثير، بدون فائدة.

وبالرغم من كل المثبطات كان يشق طريقه: «إلى الأمام، إلى الأمام دائماً!». إن طاقته لا تُحَدّ، وإرادته لا تلين، وجوعه لا يُشبَع. «دع الشاعر ينفجر بتوتره نحو أشياء لم يسمع بها أحد!. ولم يُسَمِّها أحدٌ!». حين أفكر بهذه الفترة، المتميزة بجهد يكاد يكون مجنوناً من أجل منفذ إلى العالم، من أجل موضع قدمٍ فيه، حين أفكر بالاندفاعات المتكررة في هذا الاتجاه أو ذاك، مثل جيش محاصَر يحاول الخلاص من القبضة المحكمة عليه كاللعنة... حين أفكر بهذا كله أرى شبيبتي نفسها، ثانيةً. ثلاث مرات، وهو دون العشرين، بلغ بروكسل وباريس. مرتين بلغ لندن. ومن شتوتجارت، بعد أن تمكن من لغة ألمانية كافية، طوّف مشياً على قدميه، عبر فورتمبرغ وسويسرا، ليبلغ إيطاليا. ومن ميلانو شرع يمشي قاصداً جزر السيكلاديس [في بحر إيجة]، عبر برنديزي، ليصاب بضربة شمس، ويعاد إلى مرسيليا عن طريق ليكورن. وغطى بتجواله شبه الجزيرة الاسكندنافية مع كرنفالٍ متنقل، وأبحر من موانئ هامبورج، وانتويرب، وروتردام، ووصل إلى جاوة بعد أن انخرط في الجيش الهولندي، ليفرّ منه.

ومرةٍ، حين مرّ بجزيرة «سانت هيلانة» على ظهر سفينة إنكليزية رفضت الرسوّ هناك ألقى بنفسه في البحر، لكنه أعيد إلى السفينة قبل بلوغه الشاطئ. من فيينا اقتادته الشرطة إلى الحدود البافارية باعتباره متشرداً. ومن هنا اقتيد، ثانية، إلى حدود اللورين. وفي كل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذه الافلاتات والاندفاعات، كان مفلساً دائماً، ماشياً أبداً... طاوياً عادة. في شقيتاڤيشيا بلغ الشاطئ مصاباً بحمى معدية ناتجة عن التهاب جدران الأمعاء بسبب احتكاك أضلاعه بجوفه. المشي المفرط. وفي الحبشة ركوب الجياد المفرط. الإفراط في كل شيء. كان يرهق نفسه بصورة لا إنسانية والهدف بعيدٌ دائماً.

كم أفهم هذا الجنون جيداً! وحين أستعيد حياتي في أميركا، يبدو لي أنني قطعت آلاف وآلاف الأميال على معدة خاوية. باحثاً دائماً عن قروش قليلة لكسرة خبز، لعمل، لمكان استراحة.

أبداً أبحث عن وجهٍ ودود. وأحياناً، حتى وأنا جائع، كنت أنطلق إلى الطريق، فأوقف سيارة عابرة، وأدع السائق يضعني حيث يشاء، فقط لأغير المشهد. أعرف آلاف المطاعم في نيويورك، ليس من زيارتي لها سيداً، بل من طول وقوفي خارجها محدقاً في الطاعمين جالسين على الموائد داخلها. وأستطيع حتى الآن استرواح أماكن وقوف معينة في زوايا الشوارع حيث يقدم «الهوت دوج»، أستطيع حتى الآن رؤية الطباخين ذوي الملابس البيض، وراء النوافذ، وهم يضعون الفطائر المحمصة Wabbles والفلبك Flapjacks في المقلاة. أحياناً أفكر بأنني ولدت جائعاً. ومع الجوع... المشي... التشرد، البحث، محموماً، تائهاً، جيئة وذهاباً. إن أفلحت في شحاذة ما يزيد قليلاً على وجبة ضرورية، ذهبت فوراً إلى المسرح أو السينما. وكل ما أهتم به، حين تمتلئ معدتي،

أن أجد مكاناً دافئاً أنيقاً أرتاح وأنسى فيه متاعبي ساعة أو ساعتين. ولا أوفر شيئاً في مثل هذه الظروف، للعناية بأمري... فمجرد تركي دفء المسرح المشابه لدفء الرحم، أمضي في البرد والمطر ماشياً إلى المكان البعيد الذي صادف أني أسكن فيه. من قلب بروكلين إلى قلب مانهاتن مشيت مراتٍ لا تحصى، في مختلف ظروف الطقس، ومختلف درجات الطوى. وعندما أنهك تماماً، وأعود غير قادر على أن أخطو خطوة واحدة، أكون مرغماً على الاستدارة، متتبعاً آثار خطاي. إنني أستطيع أن أفهم كيف يدرب الجنود على أداء مسيرات إجبارية بالغة الطول، وهم جياع. لكن الأمر ليس واحداً، حين تمشي في شوارع مدينتك الأصلية بين وجوهٍ عدوة، وحين تكون متشرداً على الطريق العام في ولايات مجاورة. في مدينتك الأصلية تكون العداوة هي اللامبالاة، بينما يواجهك في المدن الغريبة عنصرٌ مُعادٍ غرزياً. فثمة كلاب متوحشة، وبنادق صيد، وشرفاء شرطة، وحرس من كل نوع، بانتظارك. وأنت لا تستطيع التمدد على الأرض الباردة إن كنت غريباً عن تلك الناحية. أنت تظل سائراً، سائراً، سائراً، طوال الوقت. وفي ظهرك تحس بفوهة المسدس البارد، وهي تطلب منك أن تسير أسرع، أسرع، أسرع. إنها بعد هذا، بلادك، التي يحدث فيها هذا كله، وليست أرضاً أجنبية.

قد يكون اليابانيون قساة، والهون برابرة، لكن أي شياطين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هؤلاء الذين يبدون مثلك، ويتكلمون مثلك، ويلبسون اللبوس ذاته، ويأكلون المأكل نفسه... ويطاردونك ككلاب الصيد؟ أليس هؤلاء ألدّ أعداء يمكن أن يجدهم المرء؟ قد أجد أعذاراً للآخرين، لكني لا أجد أي عذر لذوي المرء أنفسهم. غالباً ما كتب رامبو إلى أهله يقول «ليس لي أصدقاء هنا»، وحتى في حزيران ١٨٩١، ومن مستشفى مرسيليا، كان يعيد النغمة نفسها. «أموت حيث يلقي بي القدر. آمل أن تكون لديّ القوة للعودة إلى حيث كنت (الحبشة)، فلي هناك أصدقاء سنوات عشر، يشفقون عليّ. لقد وجدت عندهم العمل، وعشت كما أردت، سأعيش دائماً هناك، أما في فرنسا، وباستثنائك، فليس لي أصدقاء ولا معارف... لا أحد».

وثمة هامش نقرأ فيه ما يأتي:

«مع مجد رامبو الأدبي، الذائع في باريس، فإن محبيه المخلصين كثارٌ. إنه يتجاهلهم. أي لعنة!» أجل. أي لعنة! أفكر بعودتي أنا إلى نيويورك، وهي عودة إجبارية أيضاً، بعد سنوات عشر في الخارج. لقد غادرت أميركا، وليس معي إلا عشر دولارات استدنتها في اللحظة الأخيرة قبل أن أستقل السفينة؛ ثم عدت بلا قرش، مستديناً أجرة السائق من موظف الفندق الذي ظن حين رأى حقائبي وأغراضي أن لديّ ما أدفع به قائمة الفندق.

وكان أول ما عليّ أن أفعله بلوغي «الوطن» أن أتصل هاتفياً

بأحدهم بغية قليل من الدراهم. وخلافاً لرامبو، لم يكن لديّ هميان مليء بالذهب، خبيء تحت الفراش. لكن ساقيّ ما تزالان سليمتين، وهكذا في الصباح، لو لم يأت العون في المساء، سوف أبدأ المشي عبر المدينة بحثاً عن وجه ودود، ثانية. تلك السنوات العشر، في الخارج، اشتغلت مثل عفريت، ووفرت لنفسي حق العيش المريح عاماً أو نحوه. لكن الحرب تدخلت، وحطمت كل شيء. تماماً مثلما خيبت دسائس الدول الأوروبية فرص رامبو في الصومال.

كم يبدو أليفاً هذا المقطع من رسالة مؤرخة في كانون الثاني ١٨٨٨، من عدن... «كل الحكومات جاءت لتبتلع الملايين (وحتى المليارات) على كل هذه السواحل اللعينة الحزينة، حيث يظل أهل البلد شهوراً بلا غذاء ولا ماء، تحت أقسى مناخ في الأرض. وكل هذه الملايين الملقاة في أحشاء البدو، لم تحمل إلا الحروب، والكوارث من كل نوع»!.

أي صورة أمينة هذه... لحكوماتنا العزيزة!

هذه الباحثة، أبداً، عن موطئ قدم في مكان ما تعس، مضطهدة أو مبيدة السكان المحليين متشبثة بما لديها، مدافعة عن ممتلكاتها، مستعمراتها، بالجيش والبحرية. العالم بالنسبة للكبار، ليس كبيراً بما فيه الكفاية. أما الصغار الذين يريدون ملاذاً، فلهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكلمات الورعة والتهديدات المقنعة. الأرض للأقوياء، لذوي الجيوش والبحرية، لأولئك الذين يرفعون الهراوة الاقتصادية. أي مسخرة في أن على الشاعر المتوحد الهارب إلى نهاية العالم من أجل تدبير معيشة بائسة... أن يجلس مبسوط الذراعين، وهو ينظر إلى الدول الكبرى تفسد حديقته.

«نعم، نهاية العالم... تقدّم، تقدّم، دائماً... الآن تبدأ المغامرة الكبرى...) لكنك مهما أسرعت... فستجد الحكومات أمامك، بالتقييدات، والقيود، والسلاسل، والغازات السامة، والدبابات، والقنابل النتنة. لقد أخذ رامبو على عاتقه تعليم أولاد «هرر» وبناتها، القرآن، بلغتهم. أما الحكومات فسوف تبيع هؤلاء في سوق النخاسة. كتب مرة يقول «ثمة خراب ضروري»، ويا للضجة التي قامت حول هذا التصريح البسيط! كان يتحدث آنذاك عن الخراب المؤدي إلى الخلق. لكن الحكومات تخرب بدون أدنى عذر، وبالتأكيد دون أي تفكير بالخلق. لقد أراد رامبو أن يرى الأشكال القديمة تزول، في الحياة كما في الأدب. أما ما تريده الحكومات فهو الإبقاء على الأمر الواقع، مهما كلّف هذا الإبقاء من تذبيح وتخريب.

بعض كتّاب سيرته، حين يصفون سلوكه في شبابه، يجعلون منه ولداً بالغ السوء. ألا تدري؟ لقد فعل أشياء مقرفة... كيت وكيت. لكنهم حين يأتون إلى مدح أفعال حكوماتهم العزيزة،

وبخاصة في ما يتعلق بالمكائد التي وقف رامبو ضدها، يجعلون من كل شيء عسلاً وبياضاً ناصعاً.

عندما يريدون إغفال صفة المغامرة يتحدثون عن الشاعر العظيم الذي كانه. وعندما يريدون إغفال صفة الشاعر يتحدثون عن فوضاه وتمرده.

إنهم يدهشون حين يقلد الشاعر نهّابيهم ومستغِليهم، ويذعرون لأنه لا يبالي بالمال أو برتابة حياة المواطن العادي المملة.

إنه باعتباره بوهيمياً، بوهيمي أكثر من اللازم، وباعتباره شاعراً، شاعر أكثر مما ينبغي، وهو رجل أعمال أكثر من اللازم، وكمهرب بنادق، حاذق أكثر مما ينبغي... وهكذا إن فعل شيئاً أتقنه... ويبدو أن هذا الأمر أمسى شكوى ضده. من المؤسف انه لم يغدُ سياسياً، إذن لقام بعمله خير قيام إلى حدّ أن هتلر، وستالين وموسوليني، دع عنك تشرشل وروزفلت، سيبدون إزاءه بهلوانات. وأشك في أنه كان سيجلب إلى العالم الخراب الذي جلبه هؤلاء الزعماء الموقرون. كان سيحفظ بالتأكيد، شيئاً في كمّه ليوم ماطر. ولم يكن ليطلق صاعقته. لم يكن ليضل السبيل إلى الهدف، كما فعل زعماؤنا النابهون. ومع كل الخراب الذي ألحقه بحياته، أؤمن بأنه ـ لو مُنح الفرصة ـ كان سيجعل العالم أجمل مكان نعيش فيه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أؤمن بأن الحالم، مهما بدا غير عملي بالنسبة لرجل الشارع ـ هو أكثر قدرة وكفاءة، بألف مرة، ممن نسميهم الساسة.

كان يمكن ان تتحقق بهذه الدرجة أو تلك، كل المشاريع المذهلة التي أراد رامبو تنفيذها، والتي عطلت لهذا السبب أو ذاك.

كل ذنبه، أنه فكر بمشاريعه قبل الأوان. لقد رأى أبعد كثيراً من آمال وأحلام الساسة والناس العاديين على حد سواء. كان يعوزه إسناد أولئك الناس الذين يسعدون حين يتهمونه بكونه حالماً، الناس الذين لا يحلمون إلا في النوم... الذين لم يحلموا أبداً مفتحي العيون. كل شيء يأتي بطيئاً، متثاقلاً، بالنسبة للحال الذي يقف وسط الواقع... كل شيء حتى الخراب.

كتب أحد كتّاب سيرته «لن يشفي غليله أبداً. تحت نظرته الكليلية تذوي كل الزهور، وتشحب النجوم». أجل، ثمة شيء من الحق في هذا القول. وأنا أعرف الأمر إذ عانيت من المرض نفسه. لكن إن حلم احد بإمبراطورية، إمبراطورية الإنسان، وإن جرؤ احد على التفكير بخطى الحلزون التي يتقدم بها البشر نحو تحقيق أحلامهم، فمن الممكن أن ما نسميه أنشطة الإنسان، سيعروها الشحوب، حد التفاهة. لا أعتقد أبداً، أن الزهور تذوي، والنجوم تشحب تحت عيني رامبو، بل أرى أن جوهره يتصل اتصالاً مباشراً متحمساً بالزهور والنجوم. في عالم الناس، فقط، كانت نظرته

الكليلة، ترى الأشياء تذوي وتشحب. قد بدأ وهو يريد أن «يرى كل شيء. يحس كل شيء. يستنفد كل شيء. يكتشف كل شيء. يقول كل شيء». ولم يمر وقت طويل حتى أحس باللجام في فمه، وبالمهماز على جنبيه، وبالسوط على ظهره. ليلبس المرء، فقط، ملابس مختلفة عن سواه، ترى، أي احتقار وسخرية يتعرض لهما. إن القانون الوحيد الذي نحياه حقاً، نتعلق به، ونثأر له، هو قانون الموافقة، فلا عجب إذ انتهى وهو ما يزال صبياً إلى أن «يجد اضطراب ذهنه مقدساً». في هذه النقطة، جعل من نفسه، رائياً، حقاً. لكنه، من ناحية أخرى، وجد الناس ينظرون إليه باعتباره مهرجاً وبهلواناً، وكان أمامه اختيار أن يقاتل طيلة حياته من أجل أن يثبت في الموقع الذي كسبه، أو أن يتخلى عن النضال نهائياً. لِمَ لم يساوم؟ لأن المساومة لم تكن في قاموسه. كان متعصباً منذ طفولته، شخصاً عليه أن يمضي إلى نهاية الطريق، أو يموت. وفي هذا يكمن طهره وبراءته.

في كل هذا اكتشفت، ثانية، ورطتي الخاصة. لم أتخل أبداً عن النضال. لكن... أي ثمن دفعته! كان عليّ أن أشن حرب عصابات، ذلك النضال اليائس النابع من الاستماتة، وحسب.

والعمل الذي اعتزمت كتابته، لم يُكتب بعد، أو كُتب جزئياً. كان عليّ أن أناضل، كل بوصة من الطريق، فقط من أجل أن أرفع صوتي، وأتحدث بطريقتي الخاصة. لقد غدت الأغنية منسية، أو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كادت، بسبب النضال. تحدث عن النظرة الكليلة التي تذوي تحتها الزهور وتشحب النجوم! لقد غدت نظرتي، حقاً، أكّالة: وإنها لمعجزة ألا تعصف نظرتي التي لا ترحم. بالزهور والنجوم. أما بالنسبة للظاهر، فإن الشخص السطحي قد تعلّم، تدريجياً، أن يكيف نفسه لطرائق العالم. إنه يستطيع أن يكون فيها، بدون أن يكون منها. يستطيع أن يكون شفوقاً، لطيفاً، محسناً، كريماً. لم لا؟ «إن المشكلة الحقيقية» ـ كما أشار رامبو ـ «هي أن تجعل الروح مهولةً»، أي ليست فظيعة، بل خارقة! ما معنى «مهولة» ؟ حسب القاموس هي «كل شكل منظم من أشكال الحياة، شُوّه كثيراً، إما بسبب نقص، أو زيادة، أو تبدّل موضع، أو تغير أجزاء أو أعضاء، وبالتالي، كل شيء هائل أو شاذ، أو مكون من أجزاء أو صفات متخالفة، سواء كان شنيعاً أم لم يكن».

إن جذر الكلمة Monstrous هو من الفعل اللاتيني Moneo أي: يُحذّر. وفي الميثولوجيا نتعرف على الكلمة في هيئة العنقاء والسعلاة وأبي الهول والقنطور وجنية الغابة وعروس البحر. وكلها كائنات خارقةٌ... وهو المعنى الجوهري للكلمة. قد قلبت الميثولوجيا، النموذج، التوازن. ما مغزى هذا الأمر إن لم يكن خوف الإنسان البسيط! إن الناس البسطاء يرون دائماً كائنات خارقة في طريقهم، سواء كانت أحصنة طائرة أو هتلريين.

أعظم خوف للإنسان، هو امتداد الوعي. والجانب المرعب في

الميثولوجيا ينبع من هذا الخوف. يتوسل الرجل البسيط: «دعونا نعيش بسلام وانسجام». لكن قانون الكون يقضي بأن السلام والانسجام لا يأتيان إلا بالصراع الداخلي. والرجل البسيط لا يريد أن يدفع ثمن ذلك النوع من السلام والانسجام، إنه يريدهما جاهزين، مثل بدلة جاهزة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٣

(رحلة الطائر الذهبي)

هناك كلمات ملازِمةٌ، متكررة، يستعملها الكاتب، أكثر قدرةً على الكشف من كل الحقائق التي يكدسها كاتبو السير الصبورون. وإليك القليل مما نجده في شعر رامبو:

«الأبدية، اللامنتهي، الإحسان، الوحدة، الضيق، النور، الفجر، الشمس، الحب، الجمال، الخفيّ، الشفقة، الشيطان، الملاك، الثمل، الفردوس، الجحيم، السأم...».

إنها لحمة مثاله الداخلي وسداه. وهي تنبئنا عن براءته وجوعه وقلقه وتعصبه وعدم تسامحه واستبداده. كان إلهه، بودلير الذي سبر أغوار الشر. لقد أشرت سابقاً، إشارة جديرة بالإعادة، وهي أن القرن التاسع عشر بأكمله، كان معذباً بمسألة الإيمان.

في الظاهر، يبدو كأنه قرنٌ منذورٌ إلى التقدم المادي، قرن مكتشفات ومخترعات مختصة بالعالم الفيزيائي. ولكن في الأعماق، حيث الفنانون والمفكرون، نلحظ قلقاً عميقاً واضطراباً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد اختزل رامبو الصراع في صفحات قليلة. وكما لو أن هذا لم يكن كافياً، لذا طبع حياته كلها بالطابع الملغِز الذي يميز المرحلة. إنه، رجل زمنه الأكثر صدقاً مما كان عليه غوته وشيلي وبليك ونيتشه وهيجل وماركس ودوستويفسكي. إنه منقسم من الرأس إلى القدم، في كل ناحية من كينونته، يواجه دائماً طريقين. إنه ممزق، مسحوق بعجلة الزمن. إنه الضحية والجلاّد: حين تنطق باسمه، يكون لديك الزمان والمكان والحدث. واليوم، وقد أفلحنا في فلق الذرة... فإن الفضاء مفتوح واسع أمامنا. ها قد وصلنا، ممسوسين بقوة لم تستطع حتى آلهةُ القديمِ أن تطلقها. إننا هناك، أمام بوابات الجحيم. ترى، هل سنقتحم الأبواب، ونفجّر الجحيم نفسه.. مفتوحاً؟ أعتقد أننا سنفعل هذا. أعتقد أن مهمة المستقبل هي اكتشاف مملكة الشر، حدّ ألا يبقى فيها أي أمرٍ، سرّاً. سوف نكتشف الجذور المرة للجمال، متقبلين الجذر والزهرة، الورقة والبراعم. لم يعد باستطاعتنا مقاومة الشر: يجب أن نتقبله.

حين كان رامبو نفسه يكتب «كتابه الزنجي» «فصل من الجحيم»، روي أنه أعلن أن «قدري يعتمد على هذا الكتاب!». كم هو عميق الصدق في هذا التصريح الذي لم يكن رامبو نفسه ليعرف مداه. عندما بدأنا ندرك قدرنا المأساوي، بدأنا ندرك ما عناه. لقد طابق قدرَه بأخطر المراحل التي عرفها الإنسان. إننا أمام خيارين:

إما أن نفعل مثله، فنرفض كل ما وقفت الحضارة إلى جانبه منذ أمدٍ طويل، أو أن ندمّر الحضارة بأيدينا نحن.

عندما يكون الشاعر في الحضيض، يغدو قلب العالم، رأساً على عقب، واجباً.

حين لا يعود باستطاعة الشاعر، التحدث إلى المجتمع... وإنما لنفسه، فقط، نكون نحن، إذن، في الخندق الأخير.

على الجسد الشعري لرامبو أخذنا نبني برجاً لبابل. ولا يعني شيئاً أننا لا يزال لدينا شعراء، أو أن بعضهم لا يزال مقروءاً، قادراً على الاتصال بالناس. ما هو اتجاه الشعر؟ وأين العلاقة بين الشاعر والجمهور؟ ما هي الرسالة؟ لنوجه هذا السؤال أولاً:

أترانا نفكر بالجمال مهما كان مُرّاً، أم نفكر بالطاقة الذرية؟ وأي عاطفة قائدةٍ تلهم مكتشفاتنا العظمى، الآن؟ الرهبة! إن معرفتنا بلا حكمة، وراحتنا بلا أمان، واعتقادنا بلا إيمان. ولا يجد شعر الحياة تعبيره إلا في الصيغ الرياضية والفيزيائية والكيميائية.

الشاعر منبوذ، شذوذ، هو في طريقه إلى الانطفاء. من يهتم الآن... كيف جعل الشاعر من نفسه مهولاً؟ إن الوحش طليق، يطوف العالم. لقد أفلت من المختبر. وهو في خدمة كل من يجد الشجاعة على استخدامه. العالم أمسى، حقيقة، رقماً. إن أخلاقية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوجهين، مثل كل ذي وجهين، قد انهارت. وهذه الفترة هي فترة التدفق والخطر المحيق. لقد حلّ الانجراف الكبير.

أما الحمقى فيتحدثون عن الترميمات، والتدقيقات، عن الإنحيازات والإئتلافات، عن التجارة الحرة والاستقرار الاقتصادي، والإصلاح. لا احد يؤمن من الأعماق بأن وضعية العالم يمكن تصحيحها. كل واحد ينتظر الحدث الكبير، الحدث الوحيد الذي يشغلنا ليل نهار: الحرب القادمة. نحن عبثنا بكل شيء، فلم يبق بيننا من يعرف كيف. ومن أين يصل إلى التحكم. المكابح لا تزال موجودة، لكن أتراها ستعمل؟ نحن نعرف أنها لن تعمل. قد انطلق المارد. لقد أمسى عصر الكهرباء متخلفاً وراءنا، كأنه العصر الحجري. عصرنا هو عصر القوة، القوة الخالصة الصريحة. اليوم... أمامنا: إما الجنة أو النار، ولا وسط بينهما. وكل الدلائل تشير إلى أننا سنختار النار. حين يعيش الشاعر جحيمه، لا يعود باستطاعة الإنسان العادي أن ينجو من الجحيم. هل سميت رامبو مرتدّاً؟

نحن، جميعاً، مرتدون. لقد كنا نرتدُّ منذ فجر التاريخ. وأخيراً لحق بنا القدر. سيكون لنا «فصل ـ نا ـ في الجحيم»... لكل رجل وامرأة وطفل ذوي علاقة بهذه الحضارة. هذا ما كنا نتوسل حدوثه، وهو الآن... هنا. ولسوف تبدو «عدن» مكاناً مريحاً.

في زمن رامبو، كان لا يزال بالإمكان مغادرة «عدن» إلى «هرر»، لكن بعد خمسين سنة، من الآن، ستمسي الأرض، بأسرها، فوهة بركان شاسعة. القوة التي بين أيدينا اليوم ـ بالرغم من نفي العلماء ـ هي قوة مشعة، دائمة التدمير. لم نفكر، أبداً، بالقوة، في صيغة الخير. بل في صيغة الشر، حسب، ليس ثمة من غامض في طاقات الذرّة، إن الغموض هو في قلوب البشر. لقد جاء اكتشاف الطاقة الذرية متزامناً مع اكتشاف أن احدنا لن يثق بالآخر، مطلقاً. هنا يكمن الشؤم ـ هذا الخوف المتعدد الرؤوس، الهيدرا، الذي لا تستطيع أي قنبلة أن تدمره. إن المرتد الحقيقي هو الإنسان الذي فقد الثقة ببني جنسه. فقدان الإيمان، شامل، اليوم. وهنا يكون الربّ نفسه عاجزاً. لقد آمنا بالقنبلة، والقنبلة هي التي سوف تستجيب لصلواتنا .

* * *

أي صدمة يعانيها الشاعر، حين يكتشف أن رامبو قد أنكر دعوته! الأمر كما لو قلت إنه أنكر الحب. مهما يكن الدافع، فإن السبب الرئيسي هو فقدان الإيمان. إن ذعر الشاعر، وإحساسه بالتعرض للخيانة والخديعة، يوازيه رد فعل العالِم حين يكتشف لأي غرض استخدمت اختراعاته. وثمة إغراء بأن يقارن المرء عمل رامبو الإنكاري، بإطلاق القنبلة الذرية. إن الإرجاع، مع أنها أوسع في الحالة الأخيرة، غير أنه ليست أكثر عمقاً. فالقلب يسجل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصدمة قبل أجزاء الجسم الأخرى. والهلاك الأبدي يستغرق وقتاً، حتى ينتشر خلال جسد الحضارة. ولكن، حين غادر رامبو، من الباب الخلفي، فإن القيامة تكون قد أعلنت عن نفسها.

كم كنت مصيباً حين أجّلت الاكتشاف الحقيقي لرامبو!

إن توصلي إلى نتائج، حول ظهوره وعلاماته على الأرض، مختلفة تماماً عن الشعراء الآخرين، نابع من نفس الروح التي تجعل القديسين يتوصلون إلى استنتاجات حول ظهور المسيح. إما أن تكون مثل هذه الأمور إشارات وعلامات في تاريخ الإنسان، أو أن فن التأويل لا غناء فيه. ليس لدي أدنى شك في أننا سنعيش يوماً مثلما عاش المسيح. وإننا، جميعاً، سننكر فردانيتنا... ليس لدي أدنى شك في هذا أيضاً. لقد بلغنا حد الأنانية الأقصى، الحالة الذرية للكينونة. هناك سنتحطم.

نحن الآن نتهيأ لموت الذات الصغرى، من أجل أن تطلع الذات الحقيقة.

لقد جعلنا، بغباء، وبدون وعي، العالم واحداً، لكنه واحد في الإلغاء. علينا أن نمر خلال الموت الجماعي، كي نخرج أفراداً أصيلين. لو كان حقاً أن «الشعر يجب أن يكتبه الجميع» ـ كما قال لوتريامون، فإن علينا أن نجد لغة جديدة يتحدث فيها القلب إلى الآخر بدون توسط. يجب أن يكون نداء أحدنا للآخر، مباشراً

وفورياً، مثل مناداة رجل الله، الله. الشاعر، اليوم مرغم على التخلي عن دعوته، لأنه قد أثبت يأسه، فهو قد اعترف، فعلاً، بعجزه عن الاتصال. يوماً ما، كانت الدعوة العليا، أن تكون شاعراً، أما اليوم فهي أكثر الدعوات عقماً. ليس هذا لأن العالم ممتنع على توسل الشاعر، ولكن لأن الشاعر نفسه لم يعد يعتقد برسالته الإلهية. لقد ظل يغني، منذ قرن أو يزيد، نشازاً، ولم نعد نستطيع، أخيراً، أن «ندوزنه». نحن لا نزال نجد معنى في صرخة القنبلة، لكن هذيانات الشاعر تبدو لنا رطانة. وإنها لرطانة حقاً، إن كانت آلاف قليلة فقط، من مجموع ملياري إنسان، تتظاهر بأنها تفهم ما يقوله الشاعر الفرد. عبادة الشعر تبلغ نهايتها حين لا توجد إلا لحفنة ثمينة من الرجال والنساء. آنذاك، لن يعود الشعر فناً، بل لغة شفرةٍ لجمعية سرية مهمتها الدعوة إلى الفردية الفارغة. الفن أمر يثير عواطف الإنسان، ويمنحه الرؤية، والتألق، والشجاعة، والإيمان. هل أثار فنانُ كلماتٍ، في السنوات الأخيرة، العالم، كما فعل هتلر؟.

هل صدمت قصيدةٌ، العالمَ، مثلما فعلت القنبلة الذرية، مؤخراً؟

إننا لم نرَ، منذ ظهور المسيح، أمثال هذه الظواهر التي تزداد امتداداً، وتتضاعف باستمرار. أي أسلحة يمتلكها الشاعر، مقارنة بهذه؟ أو أي أحلام؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أين هو الآن خياله المتبجح؟ الحقيقة ماثلة أمام عيوننا، عارية تماماً، لكن أين الأغنية التي تعلنها؟ هل نرى الآن شاعراً حتى من الدرجة الخامسة؟ إنني لا أرى أحداً. أنا لا أسمي أولئك الذين ينظمون الكلم، مقفى أو غير مقفى، شعراء. الشاعر عندي هو الرجل القادر على تغيير العالم تغييراً عميقاً. ليعلن هذا الشاعر نفسه، إن كان موجوداً بيننا. ليرفع صوته! لكن عليه أن يكون صوتاً يغطي هدير القنبلة. عليه أن يستعمل لغة تذيب قلوب الناس، وتجعل الدم يغلي في العروق.

لو أردنا لرسالة الشعر أن تستيقظ، لكان علينا أن نستيقظ، منذ زمن طويل. لا يمكن إنكار أن بعضنا استيقظ. لكن على كل البشر أن يستيقظوا ـ فوراً ـ وإلا فنينا. لكن الإنسان لن يفنى تبعاً لذلك. إن ما يفنى هو: ثقافة وحضارة، وطريقة حياة. وحين يستيقظ هؤلاء الموتى، كما سيحدث، يغدو الشعر نفسه. وليس شرطاً توفر الورق والحبر لخلق الشعر، أو بذره. فالشعوب البدائية، بأسرها، شعراء فعل، شعراء حياة. إنهم ما زالوا يصنعون الشعر، مع أنه لا يهزّنا. ولو كنا منتبهين للشعراء، لما كنا بعيدين عن طريقة حياتهم: لأدخلنا شعرهم في شعرنا، ولغذونا حيواتنا بالجمال المتغلغل في حيواتهم.

لقد كان شعر الإنسان المتحضر، إستثنائياً، ضيقاً، على الدوام، فكتب بنفسه وثيقة موته.

قال رامبو: «يجب أن نكون مطلقي الحداثة»، يعني بهذا أنه قد ولّى زمان السعالي، والخرافات، والأصنام، والمذاهب، و«الدوغمات» وكل الثرثرة والتفاهة العزيزتين اللتين تتكون منهما حضارتنا المتبجحة. علينا أن نأتي بالنور، لا بالإنارة الاصطناعية.

كتب في إحدى رسائله «النقود تهبط قيمتها في مكان». كان هذا في الثمانينات. واليوم، في أوروبا، ليست لها أي قيمة تماماً. ما يريده البشر هو الغذاء والمأوى والكساء ـ الأشياء الأساسية ـ لا النقود. لقد انهار البناء الفاسد أمام عيوننا، لكننا نرفض أن نصدق عيوننا نفسها. نحن لا نزال نأمل في تدبير الأعمال التجارية كالمعتاد. نحن لم ندرك، لا الدمار الحاصل، ولا إمكانات الانبعاث. نحن نستعمل لغة العصر الحجري القديم. إن لم يستطع البشر الإمساك بفداحة الحاضر، فكيف يستطيعون التفكير بصيغ المستقبل؟ كنا نفكر بصيغ الماضي، لآلاف السنين. والآن، وبضربة واحدة، انطمس الماضي الغامض. ليس ثمة سوى المستقبل يحدّق في وجوهنا. إنه يفغر فاه مثل الخليج. ويعترف الجميع، بأنه لأمر مرعب حتى أن نبدأ التفكير بما يخبئه لنا المستقبل، إنه أكثر إرعاباً مما كان عليه في الماضي كله. في الماضي، كانت الوحوش ذات صفات بشرية، كان يمكن للمرء أن يصارعها، إن كان بطلاً بما فيه الكفاية. أما وحش اليوم، فهو خفي. وفي ذرة غبار واحدة، البلايين من الوحوش. أنت ترى أنني

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما زلت أستعمل لغة العصر الحجري القديم. أتكلم كما لو أن الذرّة هي الوحش، وكما لو أنها هي التي تمارس القوة، لا نحن.

تضليل أيضاً ـ أن تدّعي بأن الإنسان بدأ يفكر، في نقطة ما بعيدة، من الماضي. الإنسان حتى لم يبدأ يفكر. وهو ـ عقلياً ـ لا يزال على أربع. إنه يتخبط في الضباب: عيناه مغلقتان، وقلبه يخفق خوفاً. والذي يخافه أكثر ـ فليرحمه اللّه! ـ صورته هو نفسه. إن كانت ذرّة واحدة تحتوي على هذا القدر من الطاقة، فماذا عن الإنسان نفسه الذي يحتوي على أكوان من الذرات؟ وما دام الإنسان يعبد الطاقة، فلمَ لا ينظر إلى نفسه؟ إن كان باستطاعته أن يتصور، ويبرز، من أجل رضاه، الطاقة غير المحدودة، السجينة في الذرة المتناهية في الصغر... فماذا عن «النياغارات» في داخله؟ وماذا عن طاقة الأرض؟... والحديث فقط عن كتلة أخرى من المادة متناهية في الصغر؟ إن كنا نبحث عن شياطين نسرجها، فثمة عدد لا ينتهي منها، إلى حد يصيب الذهن بالشلل. وإلا... فالأمر من الخطورة بحيث يجعل الناس يهرولون لاهثي الأنفاس، من باب إلى باب، ناشرين الهذيان والجلبة.

ربما يستطيع المرء، الآن فقط، أن يُقدّر ذلك الوهج، وهو وهج الشيطان، حين أطلق قوى الشر. لم يعرف الإنسان التاريخي، أبداً، شيئاً عما هو شيطاني بحق. لقد سكن عالم ظلّ، مليئاً بالأصداء الواهنة، حسب. إن نقطة الخلاف بين الخير والشر قد

حسمت منذ زمن بعيد. لشر يعود إلى عالم الأشباح، عالم الإدّعاء. الموت للسعالي! أجل... لكن السعالي ذبحت منذ زمن طويل. والإنسان قد وُهب نظراً ثانياً كي يبصر، عبر عالم الأوهام الكابوسي، ووراءه. والجهد الوحيد المطلوب منه، هو أن يفتح عيني روحه كي يحدث في قلب الواقع، لا أن يتخبط في مملكة الوهم والضلال .

* * *

ثمة مسألة لا بد لي من إثارتها، متعلقة بتأويل حياة رامبو، وتخص عنصر القدر. كان نصيبه أن يغدو الشاعر الصادم لعصرنا، ورمز قوى التمزق الماثلة اليوم. كان قدره ـ كما ظللت أعتقد ـ أن يقع في شراك حياة مليئة بالأحداث سينهيها نهاية غير مجيدة. حين قال رامبو إن قدره يعتمد على «فصل»، فأظنه كان يعني أن «فصل» سوف يقرر مسار أفعاله المقبلة. ومن الواضح، الآن، أن الأمر قد حدث هكذا، أكيداً. ولنا أن نعتقد أنه، بكتابة «فصل»، قد أسّر لنفسه أنه لم تعد به حاجة إلى التعبير على مستوى الفن. باعتباره شاعراً، قال كل ما يمكن أن يقول. ونظن أنه قد أدرك هذا، فأدار ظهره عن الفن، عامداً. بعضهم شبه النصف الثاني من حياته بسبات «رب ڤان فينكل». لكنها ليست المرة الأولى التي ينام فيها فنان عن العالم. لقد فعل ڤول ڤاليري، الذي يقفز إلى الذهن فوراً، أمراً كهذا، حين هجر مملكة الشعر إلى الرياضيات، لمدة عشرين عاماً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أو ما يقاربها. وعادة، تكون عودة او يقظة. وقد كانت هذه اليقظة لدى رامبو: الموت. إن النور الضئيل الذي انطفأ بوفاته، قد اكتسب قوة وحدّة منذ انتشرت حقيقة موته. ولقد عاش بصورة أكثر روعة وحيوية، من كل ما فعله في حياته، بعد أن فارق هذه الأرض. ويتساءل المرء: لو أنه عاد إلى هذه الحياة... فأي نوع من الشعر كان سيكتب، وماذا ستكون رسالته؟ ويبدو الأمر، كما لو أنه ـ وقد اختُرم في عنفوان رجولته ـ قد خُدع بهذه المرحلة النهائية من النمو التي تسمح للإنسان بأن يجعل أرواحه المتقاتلة تنسجم. كان يعمل معظم حياته ملعوناً، ويناضل بكل قواه من أجل أن ينفذ الى الآفاق المفتوحة الطليقة لكينونته، وفي اللحظة الأخيرة، تماماً حين أحس بالسحب تنجاب، وجد نفسه مهمشاً مشدوداً الى الأرض. إن حمّى نشاطه تنم عن الشعور بحياة قصيرة، كما هي الحال عند د. هـ. لورنس وآخرين. وإن تساءل أحد عما إذا كان هؤلاء حققوا أنفسهم إلى الحد الأقصى، فسوف يكون الجواب بالإيجاب. ولكنهم لم يقدر لهم أن يؤدوا الدورة كاملة. وإذا أردنا أن نكون عادلين إزاءهم، فعلينا أن نأخذ بنظر الاعتبار، ذلك المستقبل الذي لم يحيوه. قلت عن لورنس، وأقول أيضاً عن رامبو، إن أياً منهما، لو عاش ثلاثين عاماً أخرى، فلسوف يغني أغنية مختلفة النغم، تماماً. كانا دوماً، متحدين مع قدرهما. قدرهما هو الذي خانهما، وقدرهما هو المستطيع تضليلنا في تفحص أفعالهما ودوافعهما.

كان رامبو، كما أراه، أنموذجاً متفوق التطور. ولا يزيد التطور الذي مر به في نصف حياته الأول، إدهاشاً، على تطور النصف الثاني. وربما كنا نحن، الذين لا نحس بالمرحلة المجيدة التي كان يتهيأ لدخولها. إنه يهبط أسفل أفقنا، على عتبة تبدّل عظيم آخر، في بداية دور مثمر كان فيه الشاعر ورجل الفعل على وشك الانصهار معاً. نحن نراه يلفظ النفس الأخير مهزوماً، وليست لنا القدرة على استكناه ما كانت تخبئه له، أعوام التجربة الأرضية من مكافأة. نحن نرى نموذَجين من الكائن متحدَين في إنسان واحد. نحن نرى الصراع، لكننا لا نرى الانسجام الكامن أو القرار. أولئك المهتمون بمغزى حياته، هم فقط الذين يسمحون لأنفسهم بالعبث بهذه التخمينات، ومع هذا، فإن الهدف الوحيد من تناول حياة شخص عظيم ودراستها مقترنة بعمله، هو إبراز الخفي، والغامض، وما لم يكتمل... كما كانت. والحديث عن لورنس الحق، أو رامبو الحق، هو الاعتراف بحقيقة أن هناك لورنس مجهولاً، ورامبو مجهولاً. لن يكون هناك خلاف حول هذين الشخصين لو أنهما كانا قادرين على الكشف، تماماً، عن نفسيهما. ومن الغريب أن نلاحظ بهذا الصدد، ان الرجال الذين يعالجون الكشوفات ـ كشوفات النفس ـ، هم بالضبط، الذين يدور حولهم السر الأعظم. ويبدو أن مثل هؤلاء الأفراد، قد ولدوا في العالم، مناضلين من أجل التعبير عن الأعمق سرية في طبيعتهم. وليس موضع شك، أن هناك سراً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يؤرقهم. ولا يحتاج المرء إلى أن يكون «رائياً» ليدرك الفرق بين مشكلاتهم، ومشكلات سواهم من الناس البارزين، وكذلك سبل تناولهم لهذه المشكلات. إن هؤلاء الرجال منحازون، بعمق، إلى روح عصرهم، إلى تلك المشكلات التي تسم زمنهم، وتمنحه الميزة واللون. إنهم ثنائيون، دوماً، لسبب واضح، ما داموا يجسدون القديم والجديد معاً.

ولهذا السبب، ينبغي أن يتوفر زمن أكثر، وتجرد أكثر، حتى نعرف قدرهم ونقيِّمهم، أكثر من معاصريهم مهما كانوا لامعين. إن جذور هؤلاء الرجال ممتدة في ذلك المستقبل بالذات، المستقبل الذي يؤرقنا. إن لهم إيقاعين، ووجهين، وتأويلين. إنهم ممتزجون بالتحول، بالتدفق. هم حكماء بطريقة جديدة. ولغتهم تبدو بالنسبة لنا، سرية، إن لم تكن حمقاء، أو متناقضة.

يشير رامبو في إحدى قصائده إلى ذلك السر المؤرق الذي نوَّهتُ به:

«هيدرا خفية، بلا أفواه

تُسرُّ وتغمّ».

كانت بلوى، تلك التي سمته في سمت كينونته وحضيضها. الشمس والقمر كلاهما كانا ساطعين في داخله، وكانا كلاهما خسيفين. «كل قمر شرس، وكل شمس مُرّة». كان الصميم منه

متآكلاً، وانتشر كالسرطان الذي هاجم ركبته. وتكشف حياته شاعراً، والتي كانت الفترة القمرية من تطوره، عن نوعية الخسوف نفسها التي وسمت حياته التالية، مغامراً ورجل فعل، وهي التي كانت الفترة الشمسية. في شبابه نجا بأعجوبة من الجنون، ومرة أخرى نجا من الجنون وهو على فراش الموت. ولو أن الموت لم يخترمه، لكان الحل الممكن الوحيد له، الحياة التأملية، بالطريقة الصوفية. واعتقد أن أعوامه السبعة والثلاثين كانت تهيؤاً لمثل طريقة الحياة هذه.

لماذا أبيح لنفسي الحديث عن هذا الجزء الذي لم يكتمل من حياته، بمثل هذا اليقين؟ ذاك لأنني أرى ثانية التناظرات مع حياتي وتطوري أنا. لو كنت مت في العمر الذي مات فيه رامبو... ترى ماذا يمكن أن يُعرف عن هدفي وجهودي؟ لن يُعرف شيء أبداً. ولاعتُبرت نموذجاً في الإخفاق، ولكان عليّ أن أنتظر حتى عامي الثالث والأربعين حتى يطبع كتابي الأول. ولكان الأمر بالنسبة لي حادث قدر، يقارن من كل وجه، بطبع «فصل» وبقدومه ينتهي الإحباط والفشل. وربما كان سيدرج، بالنسبة لي أيضاً، باعتباره «الكتاب الزنجي». وسيكون الكلمة الأخيرة في اليأس، والتمرد، والقذف. إنه كذلك، لذو نبوءة وشفاء، ليس لقرائي حسب، وإنما لي أنا أيضاً. وهو يتمتع بتلك الميزة الفنية المنقذة التي تتميز بها غالباً تلك الكتب المتخلصة من الماضي. وقد مكنني من إغلاق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الباب على الماضي، ومن الدخول إليه عبر الباب الخلفي. وسيظل السر المؤرق يتآكلني، لكنه الآن «السر المفتوح»، واستطيع تدبير أمري معه.

وما هي طبيعة هذا السر؟ لا أستطيع أن أقول سوى إنه يتعلق بالأمهات. وأشعر أن الأمر هو نفسه لدى لورنس ورامبو. إن كل روح التمرد التي أشاركهما بها نابعة من هذه المشكلة التي تعني، قد ما أستطيع التعبير، البحث عن صلة المرء الحقيقية، بالبشر.

هذه الصلة لا يجدها المرء في الحياة الشخصية، ولا في الحياة الجماعية، إن كان الشخص من هذا النمط. المرء غير قادر على التكيف إلى حد الجنون.

الإنسان يتطلع إلى لقاء نظيره، لكن المرء محاط بمساحات شاسعة خالية. إنه بحاجة إلى معلم، لكنه يعوزه التواضع، والمرونة، والصبر المطلوب. وهو لا يحس بالطمأنينة حتى مع العظماء في الروح، حتى مع أعظمهم سمواً، فهم يعانون من خلل، ويُشك في أمرهم. لكن الإنسان لا يجد قرابته إلا مع هذه النماذج السامية. إنها لمعضلة من الطراز الأول، ذات أهمية كبرى. على المرء أن يثبت اختلافه التام، كينونة وفعلاً، كي يكتشف انتسابه إلى البشر جميعاً، حتى أدناهم.

القبول هو المفتاح. لكن القبول هو العقبة الكأداء. القبول لا

التطابق. ما الذي يجعل تقبل العالم بالغ الصعوبة لدى هذا النموذج؟ الحقيقة، كما أرى الآن، ان الشخص في حياته المبكرة، قد تعرض الجانب المظلم من حياته، ومن كينونته، إلى القمع. لقد قمع هذا الجانب إلى حد الطمس. قد يفكر المرء بلا وعي مع نفسه، أن لو لم يرفض هذا الجانب من الكينونة، لكان الأمر يعني فقداناً آخر للحرية.

إن الحرية متلازمة والتمايز. الخلاص الآن، يعني فقط، الحفاظ على هوية المرء الفريدة في عالم يتجه إلى مماثلة كل شخص وكل شيء. هذا هو جذر الخوف. وقد أكد رامبو هذه الحقيقة حين أراد الحرية بالخلاص. لكن الخلاص لا يأتي إلا بعد أن يتخلى المرء عن هذه الحرية الموهومة. إن الحرية التي يطلبها كانت حرية ذاته في تأكيد نفسها بدون قيد. وهذه ليست حرية. بهذا الوهم يستطيع المرء، لو عاش طويلاً، أن يستنفذ كل جوانب كينونته، لكنه يظل يجد سبباً للشكوى، وأرضاً للتمرد. إنه نوع من الحرية التي تضمن للشخص حق الاعتراض، وحق الانسحاب حين الضرورة. وهي لا تدخل في حسابها، اختلافات الناس الآخرين... بل اختلاف الشخص وحده. لذا فهي لن تقدم للمرء العون في أن يجد صلته، ومشاركته، مع البشرية جمعاء. هكذا يظل المرء منفصلاً، منعزلاً، إلى الأبد.

هذا كله يعني، بالنسبة لي، معنى واحداً فقط ـ إن الشخص ما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يزال مشدوداً إلى الأم. وكل تمرده، لم يكن سوى غبار في العيون، المحاولة الفزعة لإخفاء هذا القيد.

الرجال من هذا النمط، هم، دائماً، ضد بلدانهم ـ والمستحيل أن يكونوا غير ذلك. الاسترقاق هو البعبع الكبير، سواء كان وطناً، أو كنيسة أو مجتمعاً.

إنهم يمضون حياتهم وهم يكسرون الأغلال، لكن القيد السرّي ينهش أعضاءهم الحيوية، ويحرمهم الراحة. عليهم أن يتوصلوا إلى اتفاق مع الأم قبل أن يستطيعوا تخليص أنفسهم من هاجس الأغلال. «خارجاً، خارجاً دوماً! أجلس على عتبة رحم الأم»، أعتقد أن هذه هي كلماتي في «الربيع الأسود»، في فترة ذهبية كنت فيها أكاد أمسك بالسر. لا غرابة في أن يغترب المرء عن الأم. إنه لا يراها إلا باعتبارها عقبة. إنه يريد راحة رحمها وأمانه، تلك العتمة والطمأنينة التي تساوي لدى الجنين، الإشراق والقبول لدى المولود حقاً. المجتمع مكوّن من أبواب مغلقة، ومحرمات، وقوانين، واضطهاد، وقمع. وليس للمرء سبيل إلى الاشتباك مع تلك العناصر التي تكوّن المجتمع، والتي من خلالها يجب أن يعمل المرء لو أراد تأسيس مجتمع حقيقي. إنها رقصة أبدية على حافة فوهة البركان. قد ينادى بالشخص متمرداً عظيماً، لكنه لن يكون محبوباً، أبداً. وضروري للمتمرد، قبل الناس كلهم، أن يعرف الحب، أن يمنحه حتى أكثر من أن يتلقاه. وأن يكونه، حتى أكثر من أن يمنحه.

مرة، كتبت مقالاً بعنوان «الرحم الهائل» صورت فيه العالم نفسه باعتباره رحماً، ومكاناً للخلق. وكان المقال جهداً شجاعاً وصحيحاً باتجاه القبول. كان بشيراً بقبول أكثر أصالة كان سيأتي قريباً، قبول حققته بكل كياني. لكن هذا الموقف، في النظر إلى العالم نفسه باعتباره رحماً وخلقاً، لم يكن بالأمر المسر لدى متمردين آخرين. لقد أبعدني عنهم أكثر، فحسب. وحين تختلف خطى المتمرد عن المتمرد، كما هو الشأن دائماً، فكما لو أن الأرض تغور تحت قدمي المرء. لقد عانى رامبو هذا الإحساس بالهبوط أثناء «الكومونة». والمتمرد المحترف يجد صعوبة في ابتلاع هذا الموقف. وهو يسميه تسمية أخرى قبيحة: الخيانة. لكن هذه الطبيعة الخائنة بالذات لدى المتمرد، هي التي تميزه عن القطيع. إنه يخون وينتهك دائماً، إن لم يكن بالكلمات، فبالروح. إنه خائن في أعماقه، لأنه يخشى أن توحده الإنسانية التي في داخله، بابن جنسه. وهو مُحطِّم تماثيل، لأنه من فرط تبجيله الصورة، يغدو خائفاً منها. ما يريده، قبل كل شيء، هو إنسانيته المشتركة، قدراته على التقديس والتبجيل. إنه مريض من الوقوف وحيداً، فهو لا يريد أن يظل إلى الأبد، سمكة خارج الماء. وهو لا يستطيع العيش مع مثله إلا إذا حظيت هذه المثل بالمشاركة، لكن كيف يستطيع أن يوصل أفكاره ومثُله إن كان لا يتحدث باللغة نفسها التي يتحدث بها ابن جنسه؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كيف يستطيع أن يكسبهم إن كان لا يعرف الحب؟ كيف يستطيع إقناعهم بالبناء، إن كان يقضي حياته كلها، بالهدم؟

على أي أساس ينشأ القلق؟

«الهيدرا الخفية» تأكل وتأكل، ليغدو حتى لب المرء والعالم، مثل خرائب معبد. صرخ رامبو «لا يوهمني شيء... أبداً!»، لكن حياته كلها لم تكن سوى وهم كبير. وهو لم يكتشف أبداً واقع كينونته، ولم يتعرف عليه. كان الواقع، القناع الذي جاهد بمخالب وحشية من أجل تمزيقه. كان عطشه لا يروى.

«لا الأساطير، ولا الشخوص

تشفي غليلي».

لا شيء يروي ظمأه. كانت الحمى في أعضائه الحيوية، حيث السر ينهش وينهش. إن روحه لتكشف عن نفسها من أعماق ماء المشيمة، حيث يترنح، مثل قارب سكران، على بحر قصائده ويدور حيثما تغلغل النور. كل رسالة من عالم الروح المتألق تشق صدعاً في جدار القبر. إنه يحيا في ملاذ أسلاف ينهار عندما يواجه ضوء النهار. كان كل ما هو عناصرّي مأواه. كان العائد إلى الأسلاف والوجه المهجور، كان الأكثر فرنسية من أي فرنسي... لكن الغريب بينهم.

كان يرفض كل ما انتصب في ضوء المسعى العام. وذاكرته التي

تعانق زمن الكاتدرائيات، والحروب الصليبية، ذاكرة رِسٍّ. وكأن الولادة قد أخفقت في إفراده.

لقد جاء إلى العالم مجهزاً مثل عربي مقاتل. إن له قواعد سلوك أخرى، ومبدأ فعل آخر، ونظرة إلى العالم أخرى. إنه بدائي مسربل بكل نبل السلالة القديمة. وهو متفوق في كل شيء، ما دام يستر جانبه الناقص. إنه الكائن المتميز، الكائن الخارق، وليد اللحم والدم البشريين، لكن الذي أرضعته الذئاب. إن أي رطانة تحليلية عاجزة عن تفسير «المهول». نحن نعلم أنه قد أخفق في هذا الأمر، لكن ماذا علينا أن نفعل لنكون أمينين لكينونته... من يقول؟ علينا أن نعيد النظر في قوانين الفهم كي نعالج لغزاً كهذا.

الناس في عجلة من أمرهم اليوم، كي يرغمونا على تبديل وسائل إدراكنا.

وذلك الملتجأ القديم الذي عاش فيه رامبو، مع سره، ينهار سريعاً.

في هذا الوضع العام، سوف يقتلع الشخص ذو المرض الغامض، من خندقه الفريد.

إن عالم الرجال والنساء. بأسره، يُطَوّق، ويؤتى به أمام قضبان العدالة. ماذا يهم لو أن بعض الأرواح النادرة تظل طليقة، غير منضبطة، تستقطر العطر من عذاباتها؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اليوم، نرى الجنس البشري، بأجمعه، يستعد لمعاناة محكمة التعذيب الكبرى. وفجأة، سنرى أنفسنا نسبح، صدراً لصدر: رجل النبوءة والرجل العادي. إن عالماً جديداً تمام الجدة، عالماً من الرعب والمنع، يدق علينا الأبواب.

سوف نستيقظ يوماً، لنرى مشهداً عصياً على الفهم. لقد ظل الشعراء والمتنبئون ينذرون بهذا العالم الجديد، منذ أجيال، لكننا رفضنا أن نصدقهم.

نحن سكنة النجوم الثوابت رفضنا رسالة كواكب السماء السيارة. لقد نظرنا إليها باعتبارها أجراماً ميتة، وأشباحاً تائهة، باعتبارها ناجية من كوارث منسية منذ زمن بعيد.

كم يشبه الشعراء كواكب السماوات السيارة؟

ألا يبدو أنهم ـ مثل الكواكب ـ على اتصال بعوالم أخرى؟

ألا يخبروننا بأشياء مقبلة، وبأشياء سحيقة، دفينة في ذاكرة الإنسان الرسية؟

أي مغزى نستطيع أن نقدمه لبقائهم التائه على الأرض، سوى أنهم رسل من عالم آخر؟

نحن نعيش وسط الواقعة الميتة، بينما يعيشون في الإشارات والرموز. إن أشواقهم لا تصادف أشواقنا إلا حين نقترب نحن من حضيض مدار الكوكب السيار. هم يحاولون قطع حبال مراسينا،

هم يحثوننا على التحليق معهم بأجنحة الروح. إنهم ينذروننا، دوماً، بمجيء أشياء مقبلة، ونحن نصلبهم، لأننا نعيش في رعب من المجهول.

في الشاعر، تتخفى ينابيع الفعل.

إن نموذجاً أعلى تطوراً من باقي الأنواع ـ وأنا، هنا، أقصد بـ«الشاعر» كل أولئك الذين يسكنون في الروح والمخيلة ـ لم يمنح إلا فترة الحمل نفسها، مثل سائر الناس. عليه أن يتم هذه الفترة بعد الولادة.

العالم الذي يسكنه ليس مثل عالمنا؛ إنه يشبه عالمنا، بقدر ما يقال عن عالمنا إنه يشبه إنسان كرو ـ ماغنون. إن إدراكه الأشياء يشبه إدراك إنسان من عالم الأبعاد الأربعة يعيش في عالم ذي ثلاثة أبعاد. إنه في عالمنا، لكنه ليس منه. فهو ينتمي إلى مكان آخر. رسالته أن يغوينا، أن يجعل هذا العالم الذي يحدُّنا، لا يحتمل. والوحيدون الذين يستطيعون الاستجابة للدعوة، هم أولئك الذين عاشوا في عالمهم ذي الأبعاد الثلاثة، واستنفدوا إمكاناته.

إن الإشارات والرموز التي يستخدمها الشاعر هي أوثق البراهين على أن اللغة وسائل تعامل مع العصي والملغز.

ما أن تصبح الرموز قابلة للاتصال على كل مستوى، حتى تفقد صحتها وفاعليتها. وطلبك من الشاعر أن يتحدث بلغة رجل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشارع، يماثل انتظارك من النبي أن يوضح نبوءاته. إن ما يبلغنا من ممالك سامقة، بعيدة، يأتي مسربلاً بالسر والغموض. أما ما يذاع، ويوضح باستمرار، من خلال الشرح ـ أي العالم المفهومي باختصار ـ فهو في الوقت نفسه مضغوط، مشدود، من خلال استعمال الكتابة الاختزالية للرموز. نحن لن نستطيع الشرح إلا في صيغ أحجيات جديدة. إن ما يرجع إلى مملكة الروح، أو الأبدي، يتحاشى كل شرح. إن لغة الشاعر مقاربة، وهي تسير موازية للصوت الداخلي عندما يقترب هذا الصوت من لا تناهي الروح.

من خلال هذا السجل الداخلي، يتصل من ليست له لغة، بالشاعر. والمسألة هنا ليست مسألة تربية لفظية، وإنما التطور الروحي.

ولا يبرز نقاء رامبو بصورة أشد وضوحاً، منه في هذا الموقع غير المتزحزح، الذي اتخذه على امتداد شعره. شعر رامبو يفهمه أناس شديدو التنوع، ويسيء فهمه أناس شديدو التنوع. ويمكننا أن نعرف مقلديه على الفور. ليس ثمة ما يشترك به مع الرمزيين. وليس ثمة ما يشترك به مع السرياليين، قدر ما أرى. إنه والد مدارس عديدة، لكنه ليس أباً لأي واحدة. استخدامه الفريد للرمز، هو علامة عبقريته. لقد توصل إلى منظومة الرمز هذه عبر الدم والألم.

وكان هذا، احتجاجاً، والتفافاً في الوقت نفسه، على انتشار

المعرفة المقبض، الذي هدد بخنق نبع الروح. كما كان أيضاً نافذة مفتوحة على عالم علائق أشد تعقيداً، عجزت اللغة القديمة عن تناوله. وخلافاً لشعرائنا المتأخرين، لم يستخدم الرموز التي استعملها الرياضي والعلماء. لغته لغة الروح، لا لغة الأوزان، والمقاييس، والعلائق التجريدية. في هذا فقط أظهر أي (حديث) مطلق، كان.

أريد هنا أن أشدد على نقطة سبق لي تلمسها، أعني أمر الاتصال بين الشاعر والجمهور. كنت أعني بإطرائي استخدام رامبو الرمز، التأكيد على أن التوجه الحقيقي للشاعر، يكمن في هذا السبيل. وفي رأيي أن هناك اختلافاً كبيراً، بين استخدام كتابة أكثر رمزية، واستخدام مصطلحات جد شخصية سميتها (رطانة). يبدو أن الشاعر الحديث يدير ظهره لجمهوره. كما لو أنه يحتقره.

يتشبّه الشاعر في الدفاع عن نفسه بالرياضي أو الفيزيائي، مستخدماً اليوم، لغة إشارية تماماً، لا يستطيع أن يفهمها أغلب المتعلمين، لغة سرية لا يفهمها إلا أهل عبادته.

والظاهر أنه قد نسي أن له وظيفة أخرى مختلفة تماماً عن هؤلاء الناس الذين يتعاملون مع العالم الفيزيائي أو المجرد. أداته الروح، وعلاقته بالرجال والنساء علاقة حيوية. لغته ليست للمختبر، وإنما لخلوة القلب. وحين يتخلى عن قوة تحريكنا، تغدو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أداته بلا قيمة. موضع التجدد هو القلب، وهناك يجب أن يرسو الشاعر. لكن العالم، من الناحية الأخرى، مهتم نهائياً، بعالم الوهم، العالم الفيزيائي، حيث ينبغي للأشياء أن تحدث. العالم، هو الآن فعلاً، ضحية القوة التي أراد يوماً استغلالها.

إن يومه لمنتهٍ. أما الشاعر فلن يكون في هذا الموقف. ولن يكون شاعراً، أولاً، إن كانت غريزته للحياة، منحرفة، كغريزة الحياة لدى العالِم. لكن الخطر الذي يهدده هو إبطال قواه؛ إنه بخيانته الثقة الموضوعة فيه، يسلم مصائر بشر لا يحصون، إلى تحكم أفراد من هذه الدنيا، همهم الوحيد، عظمتهم الشخصية. يعتبر تنازل رامبو عيّنة أخرى، من التصفية الذاتية للشاعر المعاصر. فقط رفض رامبو أن يكون غير ما كان، في مركزه باعتباره شاعراً، من أجل البقاء. شعراؤنا غيورون على الاسم، لكنهم لا يظهرون أي نزوع لتقبل مسؤولية مركزهم. إنهم لم يثبتوا أنفسهم شعراء، وهم قانعون بأن يسموا أنفسهم شعراء. إنهم لا يكتبون لعالم يتعلق بكل كلمة منهم، وإنما لعالم آخر. وهم يبررون عجزهم، بجعل أنفسهم غير مفهومين، عمداً. إنهم سجناء ذواتهم الصغيرة الممجدة، واضعين أنفسهم بمنأى عن العالم، خوفاً من أن يتهشموا عند أول اتصال. وهم ليسوا حتى شخصيين، عندما ندقق الأمر، فلو كانوا كذلك لفهمنا عذابهم وهذيانهم، كما هو. لقد جعلوا أنفسهم مجردين، شأن مسائل الفيزيائي. إن شعرهم تطلع

إلى عالم من الشعر الصافي، ينخفض فيه جهد التوصيل إلى الصفر.

عندما أفكر بأولئك الأرواح العِظام الذين عاصروا رامبو ـ رجال مثل نيتشه، وسترندبرغ، ودستويفسكي ـ عندما أفكر بالألم الذي عانوه، العذاب الذي لم يعان عبقريونا مثله، أبدأ التفكير بأن النصف الأخر من القرن التاسع عشر كان أكثر فترة حلت عليها اللعنة في التاريخ. من بين عصبة الشهداء هذه، المفعمين جميعاً بشارات المستقبل، نجد أن فان غوخ هو الأقرب، مأساة، إلى رامبو. ولد بعد رامبو بعام، لكنه مات بيده هو في السن نفسها. مثل رامبو، كان صلب الإرادة، خارق الشجاعة، استثنائي الطاقة والدأب، هذه الصفات كلها مكنته من النضال ضد ما لا يقهر. لكنه، شأن رامبو، أضناه النضال، وهو، بعدُ، في عنفوان حياته.... فسقط، وهو في ذروة قواه.

التشرد، تبدل المهن، التقلبات، الإحباطات، المهانات، وغيوم الجهل التي أحاطت بهما... كل هذه الوقائع التي كانت مشتركة في حياتهما، جعلتهما ينتصبان أمامنا مثل توأمين منكودين.

إن حياتهما من بين أشد الحيوات التي سجلت في العصر الحديث، حزناً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا أحد يستطيع قراءة رسائل فان غوخ دون أن ينهار، مرة إثر مرة.

والاختلاف الكبير بينهما على أية حال، هو ما تلهمه حياة فان غوخ من حقيقة.

بعد موت فان غوخ بقليل، كتب الدكتور غاشيه، الذي فهم مريضه فهماً عميقاً، كتب الى ثيو، شقيق فنست ما يأتي: «كلمة حب الفن ليست دقيقة، على المرء أن يسميها إيماناً، وهو إيمان سقط فنسنت شهيده!» هذا هو العنصر الذي يبدو أنه كان مفقوداً تماماً، لدى رامبو ـ الإيمان، سواء بالله، أو الإنسان أو الفن. هذا الغياب هو الذي جعل حياته تبدو رمادية، وكالحة السواد أحياناً. إلا أن تشابهات المزاج بين الرجلين عديدة وصارخة. إن الرابطة العظمى بينهما هي طهارة فنهما. ومقياس هذه الطهارة، يُقدم بصيغ المعاناة. لم يعد مثل هذا العذاب ممكناً في نهاية القرن. نحن ندخل مناخاً جديداً، ليس أفضل بالضرورة، لكنه مناخ أمسى فيه الفنان أكثر يباساً، ولا مبالاة. وكل من يمارس معاناة قريبة من ذلك العذاب، ويسجلها، يدمغ بأنه «رومانتيكي لا أمل في شفائه». لم يعد منتظراً أن يشعر المرء، بهذه الطريقة.

في تموز ١٨٨٠ كتب فان غوخ إلى شقيقه واحدة من تلك

الرسائل التي تغوص إلى قلب الأشياء، رسالة تستثير الدم. وحين نقرؤها نتذكر رامبو.

غالباً ما يكون في رسائلهما تطابق صارخ في التعبير. ولا يتّحد الاثنان أبداً، مثل إتحادهما عندما يدافعان عن نفسيهما إزاء الاتهامات الباطلة. في هذه الرسالة يدافع فان غوخ عن نفسه، ضد ما رمي به من عطالة. وهو يصف، بالتفصيل، نوعين من العطالة: النوع الطالح، والنوع الصالح. والرسالة موعظة حقيقية حول الموضوع، تستحق العودة إليها مراراً وتكراراً. في موضع من هذه الرسالة نسمع صدى كلمات رامبو ذاتها... (هكذا، ينبغي ألا تعتقد بأنني أتنصل من الأشياء. إنني بالحري، مؤمن بعدم إيماني، ومع هذا التبدل، إلا أنني الشخص نفسه، وهمّي الوحيد هو: كيف أكون نافعاً في العالم؟ ألا أستطيع أن أكون في خدمة هدف، وأن أؤدي أي نفع؟ كيف أتعلم أكثر، وأدرس، بعمق، مواضيع معينة؟ أنت ترى، أن هذا هو ما يشغلني باستمرار، ثم أحس بنفسي سجين الفاقة، مبعداً عن المشاركة في عمل معين... وثمة أشياء ضرورية لا أستطيع بلوغها. إنه أحد الأسباب التي لا تتركني بلا كآبة، ثم إن المرء ليحسّ بالخواء حيث ينبغي أن تكون صداقة، وحنان قوي جاد، ويشعر بتثبيط رهيب ينهش حتى طاقته المعنوية، ويبدو أن القدر يضع حاجزاً أمام غرائز الحنان، ويتعالى طوفان من الغثيان ليخنق المرء، حتى ليهتف: «إلى متى... يا إلهي؟».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثم يمضي إلى التمييز بين الإنسان العاطل بسبب الكسل، بسبب انعدام الشخصية، بسبب حطة الطبع، والنوع الآخر من الإنسان العاطل، وهو العاطل بالرغم من نفسه، المتحرق في داخله إلى العمل، والذي لا يفعل شيئاً لأن من المستحيل عليه أن يفعل أي شيء.. وهكذا. إنه يرسم صورة الطائر في القفص المذهب. ثم يضيف هذه الكلمات المؤثرة المنذرة: «وغالباً ما تمنع الظروف الناس من عمل الأشياء، إني سجين قفص لا أدري كم هو فظيع فظيع فظيع. وهناك أيضاً، وأنا اعرف الأمر، إطلاق السراح، إطلاق السراح المتأخر. السمعة السيئة حقاً أو باطلاً، البؤس، الظروف المميتة، العداء، كل هذه تسجننا، بل تدفننا، لكن المرء يحس، من ناحية ثانية، بحواجز معينة، وبوابات معينة، وجدران معينة».

أكل هذا خيال وفانتازيا؟ لا أظن ذلك. ثم يتساءل المرء: «إلهي، أيظل هذا طويلاً أبدياً، خالداً؟، أتدري ما الذي يحرر الإنسان من السجن؟ إنه كل حنان جاد عميق. أن نكون أصدقاء، أشقاء، أن نحب بعضنا، هذا الذي يفتح السجن بقوة عليا، قوة سحرية. لكن بدون هذه القوة، يظل السجن باقياً. حيثما تجد العطف استعيدت الحياة». أي موازاة بين وجود رامبو منفياً وسط أهل الحبشة، والتجاء فان غوخ الطوعي إلى مرضى مستشفى الأمراض العقلية!

ومع هذا، ففي الأماكن الشاذة، وجد الرجلان الطمأنينة والرضا النسبيين.

يقول انيد ستاركي «لثماني سنوات، ظل صديق رامبو الوحيد وأنيسه، الصبي جامي من هرر، البالغ من العمر أربع عشرة سنة أو خمس عشرة... كان جامي من الأشخاص القلائل في حياته، الذين ظل يتذكرهم ويتحدث عنهم بحنان، والصديق الوحيد الذي تكلم معه على فراش الموت، ذلك الوقت الذي ينصرف فيه تفكير أناس آخرين إلى أولئك الذين عرفوهم في فتوتهم». أما بالنسبة لفان غوخ، فقد كان رولان موزع البريد، هو الذي وقف إلى جانبه في أحلك الساعات. ولم يتحقق، البتة، تطلعه إلى من يستطيع العيش والعمل معه. وكانت تجربته مع غوغان فاشلة، بل قاتلة. وحين وجد، في النهاية، الدكتور كَاشيه في «اوڤر» كان الوقت جد متأخر. كان نسغه المعنوي قد نضب. «الدرس الوحيد الواجب أن نتعلمه في هذه الحياة، هو أن نعاني بدون أن نشكو».

هذا هو الاستنتاج الذي استخلصه فان غوخ من تجربته المُرة. وفي حالة الاستسلام السامي هذه، انتهت حياته، لقد رحل فان غوخ في تموز ١٨٩٠، بعد عام من كتابة رامبو لأهله:

«وداعاً أيها الزواج، وداعاً أيتها الأسرة، وداعاً أيها المستقبل، لقد انتهت حياتي. لست أكثر من شلو هامد».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يتحرق رجلان إلى الحرية والانطلاق، مثل هذين الروحين السجينتين.

يبدو أن الاثنين قد اختارا، عامدين أشق سبيل لنفسيهما. ولكليها امتلأ كأس المرارة حتى الاندفاق. وفيهما كان جرح لم يندمل، البتة. كشف فان غوخ في رسالة كتبها قبل موته بثماني سنوات عن خيبته الثانية الكبرى في الحب، وما سببت له. «كلمة واحدة أشعرتني بأن شيئاً لم يتغير في داخلي، عنه، وأنه كان وسيبقى جرحاً، أحمله معي، لكنه جرح عميق لن يندمل، سيظل حتى بعد سنوات، مثلما كان في اليوم الأول». لقد حدث لرامبو أمر مماثل، أيضاً، لكننا وإن كنا لا نعرف شيئاً تقريباً، عن تلك المسألة المحزنة، غير أن من الصعب ألا نعتقد بأن تأثيرها كان مدمراً، بصورة مماثلة.

يشترك الاثنان في خاصية جديرة هي الأخرى بالانتباه ـ البساطة المتناهية في متطلباتهما اليومية. كانا زاهدين زهد القديسين. هناك من يظن أن رامبو عاش فقيراً لأنه كان بائساً. لكنه حين جمع ثروة لا بأس بها، كان مستعداً للتخلي عنها لدى أول دعوة. كتب إلى أمه من «هرر» عام ١٨٨١، يقول «إن كنت في حاجة، فخذي مني ما تشائين: الأمر لك. أما بالنسبة لي، فليس هناك شخص أفكر به، سوى شخصي، أنا، الذي لا يطلب شيئاً».

حين نفكر بأن هذين الرجلين، اللذين كأن عملهما نبع إلهام دائم للأجيال اللاحقة، قد أرغما على العمل كالعبيد، وعانيا الصعاب في تأمين عيشهما، الذي لم يكن أكثر من متطلبات كادح بسيط... فكيف ننظر إلى المجتمع الذي بزغا فيه؟ أليس واضحاً أن مجتمعاً كهذا يهيئ أسباب انهياره السريع؟ يقارن رامبو في إحدى رسائله من «هرر»، أهل الحبشة بالبيض المتحضرين، قائلاً: «ليس أهل «هرر»، أكثر مكراً وسفالة من الزنوج البيض في البلدان المسماة متحضرة، الطريقة فقط ليست نفسها. بل هم أقل خبثاً، ويمكنهم في حالات معينة إظهار معرفة وإخلاص أكثر. إن المرء يكون إنسانياً بينهم». ومثل فان غوخ كان يشعر أنه في بيته مع المنبوذين والمسحوقين، أكثر من أهل وسطه. اتخذ رامبو امرأة حبشية لإرضاء عاطفته، بينما كان فان غوخ زوجاً لامرأة منكودة «وأباً لطفلها»، امرأة دونه في كل شيء، امرأة جعلت حياته لا تطاق. لقد أُنكرت عليهما، حتى في الحب الجسدي، امتيازات الرجال العاديين. وكلما طلبا من الحياة، الأقل، نالا الأقل. عاشا كالغربان الجائعة وسط الغنى الوفير لعالمنا الثقافي. لكن لم يستطع رجلان، في زمنهما، كما استطاعا أن يبلغا إحساسهما بالحرية إلى حد المأثرة. ففي سنوات قليلة، التهما، بل تمثلا، التراث المكدس منذ آلاف السنين. لقد واجهتهما المجاعة فيما كان يبدو وفرة. لقد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

آن الأوان للتخلي عن الروح. كانت أوروبا تتهيأ، فعلاً لتحطيم القالب الذي أخذ يكتمل مثل تابوت.

إن السنوات التي تلت موتهما تعود إلى ذلك الجانب المظلم من الحياة الذي كانا يناضلان من اجل التنفس، في ظله، كل ما هو بربري، وزائف، وزائل، يظهر إلى السطح بقوة الانفجار. بدأنا، أخيراً، ندرك كم هو غير حديث، هذا العصر «الحديث». لقد عملنا بكل طاقتنا على قتل الأرواح الحديثة حقاً. إن لغتهم تبدو لنا رومانتيكية فعلاً. فهم يتكلمون بلغة الروح. نحن، اليوم، نتكلم بلغة ميتة، كل بلغة مختلفة عن الآخر. لقد انتهى الاتصال. وليس علينا سوى أن ننقل الجثة.

* * *

«من المحتمل أن أغادر إلى زنجبار الشهر المقبل».

هكذا كتب رامبو في إحدى رسائله.

وفي رسالة أخرى، كان يفكر بالذهاب إلى الصين أو الهند. وبين حين وآخر يستفسر عن قناة (بنما؟). إنه سيسافر إلى أقصى العالم لو كان هناك أمل بتدبير معيشة. ولم يخطر بباله أن يعود إلى وطنه، ويبدأ الحياة من جديد. كان المكان الغريب، فقط، هو الذي يستثير ذهنه.

أي وتر أليف يضرب عليه! كم حلمت في أيامي الأولى بالسفر

إلى تمبكتو! وإن كان هذا مستحيلاً، فالسفر إلى ألاسكا وجزر بولينيزيا. وقفت، مرة، مدهوشاً، في متحف تروكاديرو، وأنا أحدق طويلاً إلى وجوه سكان جزر كارولين. وحين كنت أدرس قسماتهم الجميلة، تذكرت أن أقارب بعيدين لنا كانوا استقروا هناك. لو استطعت الذهاب إلى هناك... لشعرت، أخيراً أنني «في بيتي». أما الشرق، فكان دائم الإلحاح علي... وهو إلحاح لازمني منذ الطفولة. الشرق... ليس الصين والهند وحدهما، بل جاوة وبالي وبورما ونيبال والتيبت أيضاً. ولم يخطر ببالي مرة أنني سأواجه متاعب في تلك البلاد البعيدة. كنت أتخيل أنني سأُستقبل بأذرع مفتوحة. لكن العودة إلى نيويورك، من ناحية أخرى، كانت فكرة مخيفة. فالمدينة التي أعرف كل شارع فيها، معرفتي لكتاب، وحيث أصدقائي الكثار، ظلت آخر مكان على وجه الأرض أود العودة إليه. إنني أفضل الموت على قضاء بقية أيامي، مرغماً، في مسقط رأسي. ولا أتخيل نفسي وأنا عائد إلى نيويورك، إلا معطوباً تماماً، مشلولاً، فاقداً الروح.

يا للهفة التي قرأت بها رسائل رامبو الأولى!

كان بدأ، للتو، تطوافه. كان يهيم، متنقلاً، بين المشاهد التي رآها، طبيعة الأرض، والتوافه التي قرأها ذووه دوماً فرحين مستثارين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان متأكداً من أنه سيجد عملاً في المكان الذي سيقصده، واثقاً من نفسه... كل شيء سيكون على خير ما يرام. إنه فتى، مفعم بالآمال الكبيرة، وثمة الكثير مما يرى في هذا العالم العظيم. لكن لم يمض وقت طويل على هذه النبرة، كي تتبدل.

فبالرغم من كل الحيوية والحماسة اللتين أبداهما، بالرغم من كل رغبته في العمل، بالرغم من كل ما يملك، موهبة، وعبقرية، ودأباً، وتكيفاً... اكتشف، بدون مرور وقت طويل، أن ليس ثمة مكان لشخص مثله... أنّى ذهب. العالم لا يريد الأصالة. يريد المطابقة... العبيد... والعبيد... والعبيد... المجاري مكان العبقري، حيث يحفر القنوات... مكان مقالع الحجر، حيث لا تستخدم مواهبه. إن أكثر المناظر حزناً في العالم، منظر عبقري يبحث عن عمل. فهو غير ملائم في أي مكان... ولا احد يريده. يقول العالم: إنه عاجز عن التكيف. وبهذا تصفق الأبواب، شديدة، في وجهه. إذن... أليس له من مكان إطلاقاً؟ بلى... إن له مكاناً، دوماً، في الحضيض الأسفل. ألم تره في الموانئ يحمل غرارات القهوة، والبضائع الأخرى «الضرورية» ؟ ألم تلاحظ بأي إتقان يغسل الصحون في مطبخ مطعم قذر؟ ألم تره حمال حقائب في محطة القطار؟

ولدت في نيويورك، حيث فرص النجاح وفيرة كما يتخيل العالم.

ليس صعباً عليّ أن أتصور نفسي واقفاً، في الصف، عند وكالات التشغيل، ومكاتب الإحسان. وظهر آنذاك أنني قادر على عمل وحيد، هو غسل الصحون. وحتى في هذا، كنت، دائماً، متأخراً جداً. فهناك آلاف الرجال المستعدين، دوماً، لغسل الصحون. وغالباً ما كنت أتنازل عن مكاني لرجل بائس يبدو أسوأ حالاً مني، آلاف المرات. لكني، من الناحية الأخرى، كنت أستدين، أحياناً، ثمن أجرة السيارة، أو وجبة الطعام، من احد المتقدمين إلى العمل، الواقفين في الطابور، ثم أنسى كل ما يتعلق بالبحث عن عمل. وإن رأيت إعلاناً عن عمل أفضله، في مدينة مجاورة، فإني أذهب إلى هناك أولاً... حتى لو كان الأمر يعني قضاء يومي كله، من أجل الوصول إلى تلك المدينة. عدة مرات، قطعت ألف ميل، أو أكثر، بحثاً عن عمل تعس... نادل مطعم... مثلاً. وغالباً ما تحثني فكرة المغامرة عل المضي بعيداً. قد التقط محادثة عابرة مع شخص في الطريق، تبدل مجرى حياتي كلها. قد «أبيع» نفسي له، فقط لأني في غاية اليأس. هكذا أحاول أن أبين لنفسي معقولية ما أفعله. أحياناً يعرض علي العمل الذي ذهبت أبحث عنه، لكنني ـ عارفاً في داخلي أني لن أتمسك به ـ أترك الأمر، وأعود أدراجي إلى البيت، جائعاً دوماً. في كل ارتحالاتي وأوباتي كنت جائعاً.

هذا هو الأمر الثاني المرتبط بالعبقري ـ الطوى. أولاً، هو غير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مرغوب فيه، وثانياً... لا طعام له. وإلى جانب هذا الضيق الذي يعانيه، نراه يعيش، كما يعرف الجميع، حياة «رايلي». فهو كسول، قليل التدبير، غير مستقر، مخادع، حقاً. من يستطيع مجاراته؟ لا احد، حتى نفسه.

لِم التأكيد على الأمور القبيحة المشاكسة؟

إن حياة العبقري ليست كلها قذارة وبؤساً.

كل امرئ له متاعبه، سواء كان عبقرياً أم لا. أجل... هذا صحيح أيضاً. ولا يقدّر احد هذه الحقيقة أكثر من العبقري. بين الحين والآخر ترى العبقري يتقدم بخطة لإنقاذ العالم، أو وسيلة لتجديده، في الأقل. ولا تقابل هذه إلا بالهزأ. أي حلم من أحلام الكوكايين! دعه يعوم بحره أولاً. كيف له أن ينقذ الآخرين إن كان عاجزاً عن إنقاذ نفسه؟ الجواب الكلاسيكي، جواب لا يدحض. لكن العبقري لن يتعلم، البتة. فلقد ولد مع حلم الفردوس، ومهما كان هذا الحلم مخبولاً، فإنه سيناضل من أجل تحقيق هذا الحلم، مرة إثر مرة. إنه غير قابل للإصلاح، نزاع إلى الانتكاس، بكل معنى الكلمة. إنه يفهم الماضي، ويعانق المستقبل. لكن الحاضر لا يعني شيئاً له. والنجاح لا يغريه. والمكافآت يرفضها، وكل الفرص. وهو ساخط. لا يفيدك شيئاً حتى لو تقبلت عمله. فهو مشغول بعمل آخر؛ لقد تحول توجهه، واستدارت حماسته إلى ناحية أخرى. ما

الذي أنت فاعل له؟ كيف سترضيه؟ لن تستطيع شيئاً. فهو بعيد عن متناولك... إنه يسعى وراء المستحيل.

أظن هذه الصورة غير المحببة للعبقري، دقيقة حقاً. وربما وصفت هذه الصورة حالة الشخص غير الاعتيادي حتى في المجتمعات البدائية، مع بعض الاختلافات الضرورية. فللبدائيين أيضاً شواذهم، ومرضاهم العصبيون، والمصابون بالأمراض النفسية. لكننا نصرّ، بالرغم من هذا كله، على الاعتقاد بأن هذه الحالة ينبغي أن تزول، وأن يوماً سيأتي يجد فيه هذا النموذج من الفرد مكاناً له في العالم، بل سيكون محاطاً بالتقدير والتبجيل. قد يكون هذا أيضاً حلماً من أحلام الكوكايين. ربما كانت الرعاية، والانسجام والسلام والمشاركة أنواعاً من السراب ستظل تخدعنا، إلى الأبد. ومع هذا، فإن حقيقة كوننا نحن الذين خلقنا هذه المفاهيم، وإن لهذه المفاهيم المعنى الأعمق عندنا، هذه الحقيقة تعني أن المفاهيم تلك قابلة للتحقق. ربما خلقتها الحاجة، لكنها ستكون حقائق بالرغبة. يعيش العبقري عادة وكأن هذه الأحلام ممكنة التنفيذ. إنه محمل فوق طاقته بفعاليتها، بحيث لا يستطيع استنفادها، وحده، وهو بهذا المعنى، ينتسب إلى أولئك الرافضين العظام، الذين يرفضون «النرڤانا» حتى يستطيع البشر جميعاً تحقيقها مع أنفسهم.

«الطيور الذهبية المتنقلة خلال قصائده الظليلة!» من أين أتت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طيور رامبو الذهبية؟ وإلى أين تطير؟ إنها ليست حمائم ولا جوارح. إنها تسكن الأنوار. رسلاً تحضنها الظلمة، وتنطلق في نور الإشراق. وهي لا تشبه مخلوقات الهواء، ولا هي بالملائكة. إنها الطيور النادرة للروح، الطيور العابرة المتنقلة من شمس إلى شمس. وهي ليست سجينة القصائد... وإنما هي حرة، متحررة، فيها، تحلق عالياً بأجنحة النشوة، وتتلاشى في اللهيب.

لكأن الشاعر، وهو في النشوة، طائر بهي مجهول، غارق في رماد الفكر. فإن أفلح في تحرير نفسه، فإنه سيحلق إلى الشمس في طيران التضحية. وليست أحلامه بعالم متجدد سوى أصداء ضربات نبضه المحمومة. يتخيل أن العالم سيتبعه، لكنه في الزرقة، يرى نفسه وحيداً. وحيداً، لكن محاطاً بإبداعه... معززاً بها، للقاء التضحية العظمى. لقد تحقق المستحيل: تم حوار المبدع والمبدع. ومن الآن ستنتشر الأغنية، واهبة كل القلوب الدفء، متغلغلة في كل العقول. في السطح، يحتضر العالم. وفي القلب يتقد مثل جمره حية. في قلب الشموس العظيم للكون، تجتمع الطيور الذهبية. ثمة فجر أبدي، سلام أبدي، إنسجام ومشاركة.

إن الإنسان لا ينظر سُدًى إلى الشمس، فهو يطلب النور والدفء، لا للجسد الذي سيفنى يوماً، وإنما لكينونته الداخلية. رغبته الكبرى أن يحترق بالنشوة، وأن يذيب لهبه الصغير بنار الكون المركزية. وإن وهب أجنحة الملائكة لتأتيه برسالات السلام،

والانسجام، والألق من عوالم بعيدة، فلسبب واحد، هو أن يغذي أحلامه في الطيران، وأن يعزز اعتقاده هو بأنه سيبلغ ما هو أبعد من نفسه، على أجنحة ذهبية. الإبداع ند الإبداع الآخر. لكن الإبداعات كلها واحدة في الجوهر. إن أخوّة البشر لا تتكون من التفكير المتشابه، ولا الفعل المتماثل، وإنما في إلهام الإبداع. وإن أغنية الإبداع لتنبع من حطام التشوف الأرضي. الإنسان الخارجي يموت، كي يكشف عن الطير الذهبي الذي يشق سبيله، محلقاً، نحو الألوهية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٤

متى لا تعود الملائكة تشبه أنفسها؟

هناك، في «فصل في الجحيم» مقطع عنوانه «المستحيل» يبدو أنه يشكل مفتاحاً لطبيعة المأساة الكاسحة التي تصفها حياة رامبو. وبما أنه عمله الأخير ـ في سن الثامنة عشرة! ـ لذا يتمتع بأهمية معينة. هنا تنقسم حياته إلى قسمين متساويين، أو تكمل نفسها، إذا أردنا النظر إلى الأمر بطريقة أخرى. لقد نجح رامبو، مثل إبليس، في أن يجعل نفسه يُطرد من السماء، سماء الشباب. لم يهزمه ملاك، لكن هزمته أمه، التي تمثل بالنسبة له، السلطة. وهو قدر استسلم له منذ البداية. فالشاب اللامع، الممتلك كل المواهب، والمحتقرها، يكسر حياته، فجأة، في اثنين. إنه عمل مفزع ورائع معاً. والشيطان نفسه لم يكن قادراً على تدبير عقوبة أكثر قسوة مما فعله رامبو لنفسه، وهو في كبريائه وأنانيته اللتين لا تقهران. لقد تنازل، وهو على عتبة الرجولة تماماً، عن كنزه (العبقري أو المبدع» إلى «تلك الغريزة السرية، وقوة الموت فينا»، كما وصفها «أمييل» جيداً. هكذا شوهت «الهيدرا الخفية» صورة الحب إلى حد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يعد فيه بيِّناً، في النهاية، سوى التحدي والعجز. لقد غاص رامبو، بعد أن هجر كل أمل في استعادة مفتاح براءته المفقودة، في البئر السوداء التي تصل فيها الروح الإنسانية إلى الحضيض، حيث نردد كلمات «كريشنا»: بنفسي هذه أؤسس الكون أجمعه، وأظل، إلى الأبد، منفصلاً.

المقطع الذي يكشف عن إدراكه الموضوع واختياره، الذي حصل بقوة الضرورة، هو الآتي:

«إن ظلت روحي، منذ هذه اللحظ، يقظة، فإننا سنصل سريعاً إلى الحقيقة، التي قد تكون محيطة بنا الآن، بملائكتها، المنتحبة!... لو أنها كانت مستقيمة، دوماً لأبحرت بكامل الحكمة!...».

ما الذي حجب رؤيته، مسبباً هلاكه؟ لا أحد يعلم ـ وقد لا يعلم أحد أبداً. لقد ظلت حياته، مع كل الوقائع التي بين أيدينا، سراً، شأنها شأن عبقريته. إن ما نراه بكل وضوح، هو أن كل ما تنبأ به لنفسه في السنوات الثلاث التي منحته الإشراق... قد تحقق في سنوات التطواف، حين جعل من نفسه صحراء. كم وردت في كتاباته كلمات مثل: الصحراء، السأم، الغضب، الكدح!

في النصف الثاني من حياته، اكتسبت هذه الكلمة ملموسية فظيعة، لقد أمسى هو كل شيء توقعه، كل شيء خافه، كل شيء

ثار عليه. ولم يؤد به إلى نتيجة، نضاله من أجل تحرير نفسه من الأغلال التي صنعها البشر، ومن أجل السمو على شرائع البشر، ومعتقداتهم، وقواعدهم، وخرافاتهم. أمسى عبد أهوائه ونزواته، ولعبة لا يهمها سوى أن تخط بالطباشير، جرائم تافهة أخرى، إلى حسابه، في لوح لعنته.

وعلينا ألا ننظر بشك إلى حقيقة أنه لم يستسلم إلا بعد أن غدا «شلواً هامداً» كما عبّر هو. كان رامبو المتمرد مجسداً. وتطلب الأمر كل انحطاط وإذلال، كل شكل من أشكال التمزق، لكسر الإرادة العنيدة المنحرفة أساساً. كان منحرفاً، مارقاً، صلباً ـ حتى الساعة الأخيرة...

حتى لم يعد ثمة أمل.

كان من أكثر الأرواح التي تنبت على الأرض، استماتة.

حقاً، لقد استسلم من الإنهاك ـ ولكن ليس قبل أن يرود كل سبيل خطأ.

وفي النهاية، حين لم يعد أمامه ما يعزز كبرياءه، حين لم يعد بمواجهته إلا فكّا الموت، حين كان منبوذاً إلا من شقيقته التي أحبته... آنذاك لم يبق في وسعه إلا أن يصرخ طالباً الرحمة. لقد هزمت روحه، ولم يبق إلا أن تستسلم. كان قد كتب منذ أمد طويل «أنا آخر». واليوم وجدت مشكلة «جعل الروح مهولة» حلها. لقد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تنازلت الروح الأخرى التي كانت «أنا»: عرفت عهداً قاسياً مديداً، وقاومت كل حصار، فقط من أجل أن تنحل، أخيراً، إلى اللاشيء.

في بداياته كان ينادي «أقول... يجب أن يكون رائياً.. كن رائياً». وفجأة، ينتهي الأمر، ولا تعود به حاجة إلى الأدب، حتى إلى أدبه هو، ثم تأتي الهجرة الصعبة، والصحراء، وعبء الذنب، والضجر، والغضب، والكدح، والإذلال، والوحدة، والألم، والاحباط، والهزيمة، والاستسلام. ومن مهمة عواطفه المتصارعة، من ساحة المعركة التي هي جسده، تفتحت في الساعة الأخيرة زهرة الإيمان. ترى كم كانت بهجة الملائكة! لم توجد، البتة، روح أكثر عناداً، من هذا الأمير المتكبر آرثر! علينا ألا نستهين بأن الشاعر الذي تباهى بأنه ورث وثنيته وحب التدنيس من أسلافه، الغاليّين، كان يعرف في المدرسة بـ«المتدين الصغير القذر»، وهو لقب كان يتباهى به. «التباهي» دوماً. سواء كان قاطع الطريق في داخله أو المتعصب، الهارب من الجيش أو النخّاس، الملاك أو الشيطان... فإنه كان دائماً يسجل الأمر، متباهياً. لكن القسيس الذي جاء، في النهاية، ليأخذ الاعتراف، هو الذي يمكّننا القول إنه غادر متباهياً. روي أنه قال لشقيقته إيزابيل: «أخوك لديه إيمان، يا طفلتي... لديه إيمان، أما أنا فلم أحمل إيماناً كهذا».

إنه إيمان أكثر الأرواح يأساً، المتعطشة إلى الحياة. إنه إيمان

الساعة الأخيرة، اللحظة الأخيرة ـ لكنه إيمان. ماذا يهم، إذن، كم قاوم... وكيف كانت مقاومته شديدة، وعاصفة. لم يكن واهن الروح. كان جباراً. قاتل حتى آخر قدر من قوته. ولهذا سيظل أسمه، مثل إبليس، اسماً مجيداً، يدعيه هذا وذاك. حتى أعداؤه يدّعونه: ونحن نعلم كيف صادر الألمان النصب المقام له في مسقط رأسه «شارلفيل» ونقلوه معهم، في الحرب الأخيرة.

كم تبدو مأثورة، ونبوية، الكلمات التي قذفها بوجه صديقه دلاهاي حين أشار الأخير إلى تفوق الألمان الفاتحين. «البلهاء! خلف أبواقهم الزاعقة، وطبولهم الداوية، سيعودون إلى بلدهم ليأكلوا السجق، معتقدين أن الأمر قد انتهى. لكن انتظر قليلاً. إنهم الآن مُعَسكرون من قمة الرأس حتى أخمص القدم، وسيظلون، لوقت طويل، يبلعون نفايات المجد تحت أسيادهم المخادعين والجنون الذي سوف يسجن المجتمع الألماني بأسره، لا لغرض إلا أن يُسحق، في النهاية بائتلاف ما!».

أجل قد يدعيه الطرفان، بالتساوي. وأكرر: إن هذا لمجدُه. أي أنه يعانق الظلمة والنور. وإن العالم الذي غادره، هو عالم الموتى الأحياء، العالم المزيف للثقافة والحضارة. لقد نفض عن روحه كل الزخارف التي يتحلى بها الإنسان الحديث. «يجب أن نكون مطلقي الحداثة!»، «الإطلاق» مهم. وبعد جمل قليلة يضيف رامبو:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«معركة الروح وحشية كمعركة الرجال، لكن رؤيا العدالة هي بهجة اللّه وحده».

ورطتنا أننا نمارس حداثة زائفة. وليس فينا صراع حاد ووحشي، ولا معركة بطولية كالتي شنّها قديسو الماضي. كان القديسون رجالاً أقوياءَ، والنساك فنانين... ولم يعودوا طراز اليوم... مع الأسف. فقط الرجل العارف معنى الغواية يتحدث هكذا. فقط الرجل العارف قيمة المبدأ، المبدأ الباحث عن السمو بالحياة إلى مستوى الفن، يمجد المقدسين هذا التمجيد.

يمكن القول، بمعنى من المعاني، إن حياة رامبو كلها، كانت بحثاً عن المبدأ الصحيح، المبدأ الذي يستطيع أن يمنحه الحرية، أكيداً. ويتضح هذا تماماً، في البداية، باعتباره مجدداً، مع أن المرء قد يخالف نوع المبدأ الذي فرضه على نفسه.

وفي النصف الثاني من حياته، عندما هجر المجتمع، غدا هدف مبدئه الإسبارطي أكثر غموضاً. أمن أجل النجاح الأرضي، حسب، تحمل كل تلك المصاعب والحرمانات؟ ظاهرياً، يبدو أن ليس له هدف آخر، أكثر من أي مغامر طموح. هذا هو رأي الشكاكين، والفاشلين الذين يودون لو كان رفيقهم شخصية عظيمة مثل رامبو الملغز. أما أنا، فيبدو لي أنه كان يستعد لرحلة مثل رحلة درب الآلام. ومع أنه قد لا يكون فهم المسألة بنفسه، إلا أن تصرفه

يماثل تصرف القديس الذي يصارع طبيعته المتوحشة. ولربما كان يهيّئ نفسه، أعمى، لتقبل العفو الإلهي الذي ازدراه، بكل حمق وجهل، في شبابه. وربما أمكن القول إنه كان يحفر قبره بيديه. لكنه لم يكن، أبداً، القبر الذي أراده ـ كان يحس برعب هائل من الديدان.

بالنسبة له، كان الموت تام الوضوح، على الطريقة الفرنسية. لنتذكر كلماته المرعبة: «أن ترفع غطاء التابوت بقبضة يابسة، أن تجلس، أن تختنق. هكذا، لا شيخوخة، البتة، ولا أخطار؛ الإرهاب ليس فرنسياً». خوف هذا الموت الحي هو الذي جعله يختار الحياة الصعبة، كان عازماً على أن يتحدى الرعب، ولا يستسلم في منتصف الطريق. إذن، ما غاية هذه الحياة الشاقة، وهدفها؟ ثمة، بالطبع. اكتشاف كل وجه ممكن من الحياة. كان يرى العالم «مليئاً بالأماكن الرائعة التي لا يمكن ان تُزار طيلة حيوات آلاف الرجال». كان يريد عالماً «تعمل فيه الطاقة الهائلة طليقة». لقد أراد أن ينهك قواه، حتى يحقق نفسه تماماً. وعلى طموحه، أن يبلغ، بأي حال، حتى لو كان مستنزفاً كل الاستنزاف، حدود عالم مدهش، عالم لا يمت بصلة إلى العالم الذي عرفه.

أي عالم يمكن أن يكون هذا، غير العالم المتألق للروح؟ ألا تعبِّر الروح عن نفسها بهيئة الشباب؟ من الحبشة، كتب يائساً، إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمه، مرة يقول: «نحن نعيش ونموت بطريقة أخرى لم نخطط لها أبداً، ويتم ذلك بلا أي جزاء. ونحن محظوظون لأن هذه هي الحياة الوحيدة التي علينا أن نعيشها، ولأن الأمر واضح...» لم يكن دائماً بهذا التأكيد من أن هذه الحياة هي الوحيدة. ألم يتساءل في فصله في الجحيم، عن وجود حيوات أخرى؟ إنه يشك بوجودها. وكان هذا بعض عذابه. وأغامر بالقول أن لا احد يعرف أفضل من الشاعر الشاب أن لكل حياة مخفقة أو مستنفدة، حياة أخرى، وأخرى... بلا انتهاء، بلا أمل ـ حتى يرى المرء النور، ويختار العيش به. أجل، إن معركة الروح حادة وحشية كقتال الحرب. القديسون يعرفونها، لكن الرجل الحديث يهزأ بها. إن الجحيم موجود حيثما اعتقد المرء، وكيفما اعتقد. إن اعتقدت أنك في الجحيم، فأنت فيها. ولقد غدت الحياة، للرجل الحديث، جحيماً أبدياً، لسبب بسيط هو فقدانه أي أمل ببلوغ الجنة. إنه لا يؤمن حتى بجنة من خلقه هو. وهو، بعمليات تفكيره، يحكم على نفسه ب ـ الجحيم التهويدي العميق... إشباع الرغبة.

«رسالة الرائي» الشهيرة، التي كتبها رامبو في سن السابعة عشرة، الوثيقة التي أثارت من الأصداء أكثر من كل كتابات الأعلام... في هذه الرسالة التي تضم وصايا إلى الشعراء الآتين، يؤكد رامبو أن اتباع المبدأ يستلزم «عذاباً أليماً يحتاج (الشاعر) فيه، إلى كل قوته، كل قوته الخارقة». ويضيف أن الشاعر في إتباعه هذا

المبدأ، سوف ينتصب باعتباره «العاجز العظيم، المجرم العظيم، اللعين العظيم ـ والعارف الأعلى! ـ لأنه يبلغ المجهول!» وضمانة هذه المكافأة الكبرى، هي في الحقيقة البسيطة، أن «الشاعر قد تعهد روحه، بصورة أغنى من الآخرين». لكن، ماذا يحدث حين يبلغ الشاعر المجهول؟ يقول رامبو: «ينتهي بفقدان كل فهم لرؤاه».

ويضيف، وكأنه يتوقع مثل هذا القدر: «لكنه، قد رآها، ألم يرها؟ دعه ينفجر بوجيبه ـ بالأشياء التي لم يسمع بها أحد، ولم يسمعها أحد، والتي قد رآها، ثم ليأت آخرون مخيفون، من بعده وسيبدأون عند الآفاق التي تلاشى فيها».

هذا النداء ذو التأثير الكبير فيمن سيأتون، جدير بالانتباه لأسباب عديدة لكن الرئيسي فيه أنه يكشف عن الدور الأصيل للشاعر، والطبيعة الحقيقية للموروث. ما نفع الشاعر إن لم يصل إلى رؤيا جديدة للحياة؟ إن لم يكن مستعداً للتضحية بحياته شاهداً على حقيقة رؤياه وبهائها؟ الطريقة السائدة اليوم هي الحديث عن هذه الكائنات الشيطانية، هؤلاء الرؤيويين، باعتبارهم رومانتيكيين، والتأكيد على ذاتيتهم، والنظر اليهم، كانقطاعات وتوقفات، وفجوات، في نهر الموروث العظيم، وكأنهم مجانين يدورون في دوامة الذات. لا شيء يجافي الحق أكثر من هذا الكلام. فهؤلاء المجددون، على وجه التحديد، هم الذين يشكلون حلقات السلسلة العظيمة للأدب الخلاّق. وعلى المرء أن يبدأ، حقاً، عند

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآفاق التي تلاشوا فيها. «أمسك بالمكسب»، كما عبر رامبو، ولا تجلس مرتاحاً في الحطام، لتشكل أحجية من تجميع اللقى.

قيل إن ورع رامبو في الثانية عشرة كان من القوة بحيث إنه كان يتشوق إلى الاستشهاد. لكنه بعد ثلاث سنوات، وفي «شمس وجسد» يهتف: «بالجسد، وبالرخام، بالزهرة، بفينوس، أؤمن!» ويتحدث عن أفروديت تلقي على الكون «حباً لا منتهياً في ابتسامة لا منتهية». ويقول إن العالم سيجيب، سيهتز «مثل قيثارة هائلة في ارتعاشه قبلة هائلة». إننا نراه هنا يعود إلى براءة الوثنية، إلى ذلك العهد الذهبي المفقود، أيا كانت الحياة «حفلة تتفتح فيها كل القلوب، وتتدفق فيها كل الأنبذة». إنها فترة الاتصال بالنفس، فترة التشوف الخارق إلى المجهول، إنها ـ باختصار ـ فترة حضانة، قصيرة لكنها عميقة، مثل نعي الساماداهي Samadahi كلمة هندية تعني في الفكر الديني الهندي حالة غياب تام عن هذا العالم، واتصال بعالم آخر جميل ـ المترجم).

ثلاث سنوات أخرى تمر، وفي الثامنة عشرة، فقط، نجده في نهاية حرفته الشعرية، يكتب وصيته الأخيرة، وعهده. الجحيم التي يصفها بحيوية مفعمة، كان قد مارسها، فعلاً، بروحه؛ وعليه الآن أن يعيشها بجسده. أي كلمات تأسر القلب في المقطع المسمى «صباح» من شاب في الثامنة عشرة! لقد ولى شبابه... وولى معه كل شباب العالم. وطنه مهيض مهزوم. أمه لا تريد سوى التخلص

منه، من هذا المخلوق الغريب الذي لا يطاق. لقد عرف الجوع، والتشرد، والإذلال، والرفض، عرف السجن، وشهد «الكومونة» الدامية وربما شارك فيها... مارس الرذيلة والانحطاط، فَقَد حبه الأول، وقطع علائقه بزملائه الفنانين، مسح ميدان الفن الحديث ووجده فارغاً، وهو الآن على أهبة إعطاء كل شيء، حتى نفسه، إلى الشيطان، هكذا، سيسأل عن شبابه الضائع، كما فعل وهو على فراش الموت، حين قال: «ألم يكن لي مرة شباب لطيف، بطولي، خرافي. إلى حد أن أكتب على أوراق الذهب: حظاً عميماً! ترى أي جريمة، أي ذنب، أورثني وهني الراهن؟ أنت الذي جعلت بعض الحيوان ينتحب آسفاً، وجعلت المريض ييأس، والموتى يحلمون أحلاماً سيئة، جرِّبْ أن تحكي قصة سقوطي وهجوعي. فأنا نفسي، لا أستطيع أن أصف نفسي أكثر مما يفعل الشحاذ بترداده «أبانا» و«ليكن سلام لك يا مريم». لم أعد أعرف كيف أتكلم».

لقد أتم حكاية جحيمه الخاص... ويوشك أن يقول: وداعاً. لم يبق إلا أن يضيف بضع كلمات فراق. وثانية تأتي صورة الصحراء ـ إحدى الصور الأكثر إلحاحاً. لقد نضب نبع إلهامه: واستنفد ـ مثل إبليس، النور الذي مُنحه. ولم يبق إلا نداء الماوراء، نداء الأعماق، واستجابة لهذا النداء، يجد العزاء والإكمال في حياة الصورة المروعة التي تسكنه: الصحراء. «متى نرحل؟» هكذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتساءل «متى نرحل... لنحيي ولادة المهمة الجديدة، الحكمة الجديدة، هروب الطغاة والعفاريت، نهاية الخرافة؛ لنعشق ـ الأشياء الأولى! ـ عيد ميلاد على الأرض؟» (كم تذكر هذه الكلمات بمعاصره الذي لم يعرفه، البتة ـ نيتشه).

أي ثوري عبّر عن طريق الواجب، بهذا الوضوح، وهذه الحدّة؟ وأي قديس استخدم عيد الميلاد بمعنى أكثر ألوهية؟ إنها كلمات متمرد، أجل، لكنه ليس بالمتمرد العاق. إنه وثني، لكنه وثني مثل «ڤرجيل». ها هوذا صوت النبي ورجل المهمات، الحواري والمبادر معاً. حتى القسيس، يجب أن يشترك في عيد الميلاد هذا، بالرغم من كونه صنمياً، متشبثاً بالخرافة. «أيها الأرقاء... دعونا لا نلعن الحياة!» هكذا يصرخ. نهاية للبكاء والعويل، نهاية لموت الجسد، نهاية للطاعة والاستسلام، للمعتقدات الطفولية والصلوات الطفولية. لتمض الأصنام الزائفة، وعصي العلم. يسقط الدكتاتوريون، والديماغوجيون، وذوو الغماغم. دعونا لا نلعن الحياة، لنعبد الحياة! كانت الفترة المسيحية كلها إنكاراً للحياة، إنكاراً لله، إنكاراً للروح. والحرية لم نحلم بها حتى الآن. حرروا العقل، والقلب، والجسد! حرروا النفس... كي يحل الأمان! ها هوذا شتاء الحياة و«أنا لا أثق بالشتاء، لأنه فصل الراحة! أعطنا عيد ميلاد على الأرض، لا المسيحية. لم أكن مسيحياً، البتة. لم أنتسب إلى جنسكم. أجل، إن عيني مغمضتان

عن نوركم. إنني وحش، زنجي، لكن يمكنني أن أنال الخاص! وانتم الزنوج المزيفون، أيها التافهون، المسعورون، الخبثاء. أنا الزنجي الحقيقي وكتابي هذا هو كتاب زنجي. أقول، ليكن لنا عيد ميلاد على الأرض... الآن.... الآن، أتسمعونني؟.

وكأنه يقول متحسراً «أحياناً، أرى في السماء شواطئ لا تنتهي تغطيها أمم بيضاء فرحة». وللحظة، لا يقف شيء بينه وبين يقين الحلم. ويرى المستقبل، التحقق الحتمي لرغبة الإنسان العميقة. لا شيء قادر على منعه من المجيء، حتى الزنوج المزيفون الذين يفسدون العالم باسم القانون والنظام. لقد حلم بكل شيء، حتى النهاية. كل الذكريات الفظيعة، التي لا تذكر تتلاشى. ومعها تتلاشى الندامات. ما زال أمامه أن يأخذ بثأره، من المتخلفين، «أصدقاء الموت». بالرغم من أنني ذاهب إلى المتاهة، وأنني قد جعلت من حياتي صحراء، وأن أحداً لن يسمع باسمي منذ الآن... فليعلم أي واحد منكم، فليعلم كلكم أنني سيسمح لي بامتلاك الحقيقة في الجسد والروح. لقد فعلتم أقصى ما تستطيعون لإخفاء الحقيقة، حاولتم أن تدمروا روحي، وفي النهاية ستهشمون جسدي على خشبة التعذيب... لكني سوف أعرف الحقيقة، وأمتلكها لي، في هذا الجسد، وهذه الروح...

هذا ما ينطقه المتطلع «صديق الله» بالرغم من إنكاره اسمه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقول رامبو «ما دامت كل لغة، فكرة، فلسوف يأتي يوم اللغة الكونية... هذه اللغة، الجديدة، أو الكونية، ستتحدث من النفس إلى النفس، جامعة كل الروائح، والأصوات، والألوان، رابطة كل فكر». ولا حاجة إلى القول إن مفتاح هذه اللغة هو الرمز، الذي لا يمتلكه إلا المبدع. إنها ألف باء النفس، أصيلة، محصنة. وبوساطتها، يتصل الشاعر ـ سيد المخيلة، وحاكم العالم المعترف به ـ بأخيه الإنسان، ويشاركه. من أجل تأسيس هذا الجسر، منح رامبو الشاب نفسه، للتجريب. ويا للنجاح الذي حققه، بالرغم من الانكسار المفاجئ الغامض! إنه ما يزال، من وراء القبر، يتصل، بقوة تتعاظم مع السنين. وكلما بدا أكثر إلغازاً، صفا مبدأ. تناقض؟ أبداً. إن كل ما هو نبوي، لا يتضح إلا في الزمان والحدث. بهذه الأداة، يمكن للمرء أن ينظر أماماً ووراء، بالوضوح نفسه، ويغدو الاتصال فن تأسيس رابطة منطقية ومنسجمة، في أي وقت، بين الماضي والمستقبل. وكل ما هو مادي يصبح ميسوراً، إذا تحول إلى عملة أبدية ـ لغة النفس. في هذه المملكة لا يوجد أمّيُّون، ولا نحاة. ضروري فقط، أن تفتح القلب، وترمي بعيداً المفاهيم الأبية المسبقة، وبتعبير آخر، أن تقف مكشوفاً. إن هذا، بالطبع، معادلة للهداية... إجراء جذري يستلزم حالة من الاستماتة. لكن، إن أخفقت كل الوسائل الأخرى، كما يحدث حتماً، فلم لا تكون هذه الوسيلة ـ في الهداية؟ الخلاص لا يبدو عند بوابات الجحيم. لقد

اخفق البشر، في كل أمر. وكان عليهم... دوماً، أن يتأثروا خطاهم، ويعيدوا تحميل العبء الثقيل، ويبدأوا، من جديد الصعود الحاد إلى القمة. لم لا يتقبلون تحدي الروح ويذعنون؟ لِم لا يستسلمون، ليدخلوا في حياة جديدة؟ الرجل القديم ينتظر دائماً. بعضهم يسميه «الملقن» وبعضهم يسميه «التضحية العظمى».

إن ما أخفق مقلدو رامبو ومنتقصوه، في رؤيته، هو أنه كان يدعو إلى ممارسة طريقة حياة جديدة. ولم يكن يحاول تأسيس مدرسة جديدة في الفن، من أجل أن يحوّل ناظمي الكلمات الضعفاء ـ كان يشير إلى توحيد الفن والحياة، وأصلاً الانشقاق، شافياً الجرح المميت. المحبة السماوية، هي مفتاح المعرفة. لقد كتب في مطلع «فصل في الجحيم»:

«اليوم التالي، بعد أن وجدتني أكاد أنهار، فكرت بالبحث ثانية عن مفتاح الوليمة القديمة، حيث قد استعيد شهيتي. المحبة هي ذلك المفتاح». ثم يضيف: «هذا الإلهام أثبت أنني كنت أحلم!» يحلم في الجحيم، طبعاً. في ذلك الهجوع العميق الذي لا يستطيع سبر أغواره. لقد أرغم، هو الذي «خلق كل المهرجانات، والانتصارات، والدرامات»، خلال كسوفه، على أن يدفن كل مخيلة. إنه يجد نفسه، الآن ـ وهو الذي سمى نفسه مجوسياً وملاكاً، وحرر نفسه من كل الروابط، والإدعاءات ـ معاداً إلى الأرض، مرغماً على قبول الواقع القاسي، ومعانقته. الفلاح... هذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما سيصنعون منه. وحين يعود الى الوطن، سيجعلونه خارج التداول.

أي أكاذيب، أذن، كان يغتذيها في أحلامه المتضخمة؟ «في النهاية، سأطلب المغفرة، لاغتذائي بالأكاذيب». لكن، ممن سيطلب المغفرة؟ ليس من معذبيه، بالتأكيد. ليس من العصر الذي رفضه. ليس من تلك العنز العجوز، أمه، التي ستلجمه. ممن إذن؟ لنقل ـ من أنداده، من الذين سيخلفونه، ويستمرون في النضال المجيد. إنه لا يقدم اعتذاراته لنا، ولا حتى لله، لكن لرجال المستقبل، الرجال الذين سيحيونه بأذرع مفتوحة، حين ندخل جميعاً، في المدن الرائعة. إنهم رجال «جنس العبيد» أولئك الذين ينحاز إليهم، ويعتبرهم أسلافه الحقيقيين. وهو مبعد عنهم في الزمن، حسب، لا في الدم ولا في الطريقة. هؤلاء هم الرجال الذين يعرفون كيف يُغنّون تحت التعذيب، إنهم رجال روح، وهو مرتبط بهم، لا ارتباط الأسلاف ـ فهو لم يجد واحداً في تاريخ فرنسا كله ـ وإنما ارتباط الروح. لقد ولد في الفراغ، وهو يتصل بهم عبره. نحن لا نسمع سوى الأصداء. ندهش لأصوات هذا اللسان الغريب. ولا نعرف شيئاً عن المسرة واليقين. اللذين يسمان هذا السمو غير البشري.

أي أرواح متنوعة، ألِف، وغيّر واستبعد! وأي احتضان لقيه من أناس مختلفي المزاج، والشكل، والجوهر، أمثال ڤاليري،

كلوديل، أندريه بريتون، ما الذي يجمع بينه وبينهم؟ لا شيء، حتى عبقريته التي ضحى بها من أجل غايات غامضة. كل عمل رافض، ليس له سوى هدف واحد: الصعود إلى مستوى غامضة. (أما لدى رامبو فهو السقوط إلى مستوى آخر). لا يعيش المغني أغنيته، إلا حين يتوقف عن الغناء. ترى... وإن كانت أغنيته تحدياً؟ إذن... سيكون العنف والكارثة. لكن الكوارث، كما يقول اميل، تجيء، بإعادة عنيفة للتوازن. أما رامبو المولود تحت علامة الميزان، فيختار النهايات المتطرفة وهو في اصطبار المتوازن.

إنها دائماً، عصا الساحر التي تومئ، أو النجمة السحرية...

ثم يوضع حد للحكمة القديمة، والسحر القديم.

الموت والتجلي. ها هي ذي الأغنية الأبدية. بعضهم يبحث عن الموت الذي يختار، في الهيئة أو الجسد، الحكمة أو النفس مباشرة، وبعضهم يبلغونه بصورة ملتوية.

وهناك من يؤكد الدراما بالاختفاء عن وجه الأرض بدون أن يخلف مفاتيح، أو آثاراً، وثمة آخرون يجعلون من حياتهم حدثاً أكثر إثارة، من الاعتراف، الذي هو عملهم. أما رامبو فقد استقطر موته بشكل يدعو إلى الرثاء. لقد نثر حطامه حوله، حتى لا يخطئ أحد في فهم أن فراره أمر لا جدوى منه، إلى أي مكان، خارج العالم! هذه صرخة أولئك الذين لم تعد الحياة عندهم ذات معنى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اكتشف رامبو العالم الحقيقي طفلاً، وحاول المناداة به شاباً وتخلى عنه رجلاً. بعد أن حرم عليه الدخول في عالم الحب، أمست كل مواهبه سدى. إن جحيمه لم يتعمق إلى الحد اللازم، فشوي في المدخل ولقد كان هذا الفصل، فترة قصيرة جداً، لأن باقي حياته أصبح مطهراً. ألم تكن لديه الشجاعة حتى يسبح في العمق؟ نحن لا ندري. نحن نعلم، فقط، أنه تنازل عن كنزه ـ كما لو كان عبئاً.

إن إخفاقه لمذهل، وإن بلغة الانتصار. لكن المنتصر لم يكن رامبو. إنها الروح المتعطشة أبداً في داخله هي التي انتصرت. «إن الملاك هي الكلمة الوحيدة في اللغة، التي لا يمكن أن تبلى»، كما قال فيكتور هيجو.

«يبدأ الخلق بانفصال مؤلم عن الله وخلق إرادة مستقلة، حتى يمكن التغلب على هذا الانفصال، في هيئة وحدة أعلى من تلك التي بدأت منها العملية» ـ هـ. هـ. برنتن ـ في سن التاسعة عشرة، في وسط عمره تماماً، تخلى رامبو عن الروح. قال أحد كُتّاب سيرته «ماتت جنيته إلى جانبه، بين أحلامه الذبيحة». «بالرغم من هذا، كان رامبو كائناً خارقاً، استنفد في سنوات ثلاث عصور الفن كلها. كما لو أنه يضم حيوات عديدة داخل نفسه» كما قال جاك ريفير، ويضيف ماتيو جوزفسن «كان الأدب، منذ رامبو، في نضال «من أجل تطويقه». لماذا؟ «لأنه جعل الشعور خطراً جداً» كما يقول الأخير. وقد أعلن رامبو نفسه في «فصل» أنه «أصبح أوڤرا خرافية»

سواء كان أوڤرا أو لم يكن، فإنه ظل خرافياً ـ لا أقلّ. إن الجانب الواحد من حياته، خرافي، شأن الجانب الآخر، وهو الأمر المدهش. كما لو أن شكسبير وبونابارت امتزجا في واحد. الحالم ورجل الفعل. والآن أنصت إلى كلماته نفسها... «أرى كل الكائنات مقدراً لها الانجذاب إلى السعادة: الفعل ليس حياة، لكنه طريقة لتبديد قوة المرء، ولإضعافه». ثم يندفع في الدوامة، كأنه يحاول إثبات قوله. ها هوذا يقطع أوروبا، ويعيد قطعها، مشياً على قدميه، يأخذ سفينة في ألف عمل وعمل، يتعلم اثنتي عشرة لغة أو أكثر، وبدل التعامل بالكلمات، يتعامل بالقهوة، والتوابل، والعاج، والجلود، والذهب، والبنادق، والرقيق. المغامرة، الاكتشاف، التعلم... الارتباط بكل أنماط الناس، والأجناس، والأمم... ودائماً: العمل، العمل الذي يكرهه. لكنه السأم أولاً. كان دائم الضجر. لكن... أي حيوية! أي غنى في التجارب! وأي خواء! كانت رسائله إلى أمه شكوى واحدة مديدة، مختلطة بالتوبيخات والإتهامات والأنين، والتوسلات والتضرعات. التعس، الملعون! وأخيراً يمسي «العاجز العظيم».

ما معنى هذا الفرار، هذا العويل غير المنتهي، هذا التعذيب الذي يعرض نفسها له؟ كم صحيح أن هذا النشاط لم يكن حياة؟ أين هي الحياة، إذن؟ وما هو الواقع الحقيقي؟ يقيناً لن يكون الواقع الفظ للكدح والتشرد. هذا العراك القذر على الممتلكات؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعلن في «الإشراقات» المكتوبة في لندن الكئيبة:

«إنني فعلاً مما وراء القبر، ولا ارتكابات».

لقد قال هذا شاعراً. اليوم نعرف الأمر حقيقة. فالموسيقي الذي وجد شيئاً يشبه مفتاح الحب، كما عبّر، أضاع المفتاح. أضاع المفتاح والآلة معاً. فبعد أن أغلق الأبواب كلها، حتى أبواب الصداقة، وأحرق خلفه كل الجسور، لن تطأ قدماه أرض الحب. لم يبق إلا الخلوات العظمى في ظل شجرة الخير والشر الدفينة، حيث في «صباح ثمل» يرد هذا البيت المفعم بالحنين «حتى نستعيد حبنا الطاهر». كان يريد الخلاص في هيأة الحياة، دون أن يدرك أن الخلاص لا يأتي إلا بالاستسلام، من خلال التقبل. يقول معلمه بودلير «كل من لا يتقبل شروط الحياة، يبيع روحه». الإبداع والتجربة كانا متلازمين، متزامنين، تماماً؛ كان يتطلب القدر الأدنى من التجربة، كي يصنع موسيقى. وحين كان الشاب الخارق، كان أقرب إلى الموسيقى أو رجل الرياضيات، منه إلى الأديب. لقد ولِدَ ذا ذاكرة بالغة الحساسية.

إنه لا يكسب إبداعه بعرق جبينه ـ فهو هناك، جاهز للسحب، ينتظر الاستثارة بالاتصال الأول مع الواقع القاسي. كان عليه أن يتعهد الحزن. لا براعة المايسترو. ولم يكن لينتظر طويلاً، كما نعلم.

لقد ولد بذرة، وبقي بذرة. هذا هو معنى الليل الذي يحيط به. في داخله كان نور، نور عجيب. لكنه لن يرسل أشعته حتى يفنى. جاء مما وراء القبر، من جنس بعيد، جالباً روحاً جديدة ووعياً جديداً. ألم يكن هو القائل ـ «خطأ أن يقال: أنا أفكِّر Je Pense ينبغي القول: أفكِّر On Me Pense ـ [أو] لم يكن هو القائل أيضاً «العبقرية هي الحب والمستقبل»؟ كل ما يقوله عن «أنا» العبقري، إلهام ووحي. وأرى هذا القول ذات أهمية بالغة «جسده هو الانعتاق الذي حلمنا به، وتهشم جمال تحت وطأة عنف جديد».

أرجو ألا أتهم بالقراءة المغالية في التعمق. لقد عنى رامبو كل ما كتب «حرفياً، وبكل معنى»، كما بين الأمر، مرة، لأمه وشقيقته. حقاً، كان يشير إلى «فصل في الجحيم»... ولكن... شأنه شأن «بليك» و«جاكوب بوهم»: كل ما قالوه كان صادقاً، حرفياً، وإلهاماً. إنهم يسكنون المخيلة، كانت أحلامهم وقائع، وقائع ما يزال علينا أن نمارسها. يقول «بوهم»:

«حين أقرأ نفسي، أقرأ كتاب الله. وانتم، يا أشقائي، الأبجدية التي أقرؤها في نفسي، لعقلي، وسأجدكم داخلي. وأتمنى من كل قلبي أن تجدوني أنتم أيضاً». الكلمات الأخيرة تعبر عن الصلاة الصامتة التي كان رامبو يرسلها، باستمرار، من المتاهة التي خلقها لنفسه. الكبرياء «الخيِّرة» للعبقري تكمن في إرادته التي يجب تحطيمها. وسر الإنعتاق يكمن في ممارسة المحبة. المحبة هي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المفتاح، ورامبو كان يحلم حين أدركها، أن الحلم كان حقيقة واقعة، وهذه الحقيقة لم تظهر نفسها، ثانية، إلا وهو على فراش الموت، حين غدت المحبة، الأخت العذبة التي رافقته إلى الماوراء... مهشماً، ولكن منعتقاً.

في «ليلة في الجحيم»، حين أدرك أنه عبد معموديته، صرخ: «يا والديَّ، لقد دبرتما تعاستي، وتعاستكما». في ليل الروح المعتم، الذي أعلن نفسه، فيه، سيد التهاويل، مباهياً بأنه سيكشف كل غامض، أنكر كل ما يربطه بالعصر والبلاد التي ولد فيها. وأعلن «أنا مستعد للكمال». وكان هكذا، بمعنى ما. لقد هيأ بنفسه شعائره. وتحمل محكمة التعذيب الرهيبة، ثم ارتد إلى الليل الذي ولد فيه. لقد أدرك أن ثمة خطورة وراء الفن، ووضع قدمه على العتبة، ثم تراجع، من الفزع، أو خوف الجنون، إما أن استعداداته لحياة جديدة كانت غير كافية، أو أن هذه الاستعدادات كانت ذات ترتيب مغلوط.

ويرى أغلب الباحثين الرأي الأخير، مع أن الرأيين كليهما قد يكونان صحيحين. كما جرى تأكيد كثير على هذه الجملة: «اختلال مديد، هائل منطقي، لكل الحواس». وقيل الكثير عن مفاسده المبكرة، وحياته «البوهيمية»، لكن المرء ينسى كم هو أمر طبيعي بالنسبة لشاب مبكر النضج متفجر بالأفكار، هرب من جو لا يطاق لمنزل في الأقاليم. وسوف يكون الأمر شاذاً، بالنسبة لمخلوق نادر

مثله، لو لم يستجب لنداءات مدينة مثل باريس. وإن كان أسرف في انغماسه، فليس علينا سوى القول إن التلقيح كان أكثر من القدر اللازم. إنه لم يمض وقتاً طويلاً في باريس أو لندن، وقتاً كافياً لتحطيم فتى معافى ذي بنية فلاحية. بل إن هذه التجربة تستحق الترحيب بالنسبة لشخص ثائر على كل شيء. إن طريق الجنة تمر عبر النار... أليس كذلك؟ ومن أجل الخلاص ينبغي التشرب بالخطيئة. على المرء أن يذوقها كلها: الخطايا الكبيرة، وتلك التافهة. عليه أن يبلغ الموت بكل اشتهاءاته، أن لا يرفض سماً، أن لا يرفض تجربة مهما كانت منحطة أو قذرة. عليه أن يبلغ نهاية قواه، أن يتعلم أن المرء عبد ـ لأي ميدان كان ـ من أجل أن يتطلع إلى الانعتاق. إن الإرادة المنحرفة السلبية التي رباها الوالدان، ينبغي أن تبلغ الاستسلام، قبل أن تتمكن من التحول إلى إيجابية، وتمتزج بالقلب والعقل.

يجب أن ينزل الأب (بأي هيئة كان) من عرشه، حتى يتمكن الابن من الحكم. الأب زُحَلّي في كل وجه من كينونته. إنه رجل المهمات القاسي، ورسالة القانون المتية، وعلامة الممنوع. يتمرد المرء. يخرج مقاتلاً، مفعماً بقوة زائفة وكبرياء زائفة. ثم يتحطم، وتستسلم الـ«أنا» التي هي ليست «أنا» لكن رامبو لم يتحطم. لم ينزل الأب من عرشه، بل طابق نفسه معه. وقد فعل هذا، سواء بادعائه السلطة، أو بتجاوزاته، وتشرده، ولا مسؤوليته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لقد مضى إلى الضد، وأصبح نفس العدو الذي كرهه. تنازل، وأمسى إلهاً متشرداً، يبحث عن مملكة حقيقية. «أن يخصي المرء نفسه، أليست تلك طريقة أكيده لإدانتك؟» (كانت هذه من المسائل العديدة التي طرحها خلال احتضاره) وهذا ما فعله بالضبط. لقد أخصى نفسه ـ بتنازله عن الدور المختار له... أممكن أن الإحساس بالذنب، لدى رامبو، كان ضامراً.

أي صراع خاضه، في الفترة «الفعالة» من حياته، من أجل القوة، والامتلاك، والأمان! ألم يدرك أي كنز يمتلك، وبأي قوة يتمتع، وأي أمان لديه، حين كان شاعراً، حسب؟ (وددت لو استطعت القول إنه كشف عن نفسه باعتباره شاعر فعل، لكن الأحداث التي استولدت النصف الثاني من حياته، لم تتطور لفائدة رجل الفعل) لا... ثمة عمى يستحيل سبر أغواره، وكان رامبو من ذلك النمط. لقد حلت به لعنة. فهو لم يفقد إحساسه بالاتجاه، حسب، وإنما إحساسه باللمس أيضاً. كل شيء أخذ يسير في الاتجاه الخطأ. لقد غير هويته إلى حد لا يستطيع فيه التعرف على نفسه، لو لقي شخصه في الطريق.

ربما كانت هذه آخر طريقة يائسة للتحايل على الجنون ـ أن تكون سليم العقل تماماً، بحيث لا يعرف احد أنك مجنون. لم يفقد رامبو، أبداً الصلة بالواقع، بل الأمر على العكس، فلقد عانقه مثل عفريت. كان ما فعله أنه بحث عن الواقع الحقيقي لكينونته.

ولا غرابة في أنه ضجر حتى الموت. لم يستطع العيش مع نفسه، فقط كانت نفسه مصادرة. في هذا المجال نتذكر كلمات [لوتر يامون]:

«إنني أعيش كالبازلت! في وسط الحياة، كما في بدايتها، الملائكة تشبه أنفسها: يا للوقت الذي مضى عليَّ منذ أن لم أعد أشابه نفسي!».

يراود الإنسان الشعور أنه حاول في الحبشة حتى بتر جهاز الذاكرة. لكنه، في الأخير، حين أمسى «العاجز العظيم»، وبمساعدة عضو يدوي، تناول خيط أحلامه المخنوقة، وذكريات الماضي، بصورة جيدة.

كم هو مؤسف أننا لم نمتلك تسجيلاً للغة الغريبة التي انغمر فيها على سرير المستشفى وهو مبتور الساق، وورم خبيث ضخم على فخذه، والسرطان الداخلي يعيث خلال جسده، مثل مجموعة قاطعي طريق مُغيرة. كانت الأحلام والهلوسات ترتطم ببعضها في بُحْرَان لا ينتهي ـ ولا احد سوى الأخت المخلصة تصلي لروحه. الآن تنصهر الأحلام التي حلم بها، والأحلام التي عاشها ها هي ذي الروح، بعد أن تحررت من أغلالها، تصنع الموسيقى، ثانية.

حاولت شقيقته أن تقدم لنا بعضاً من تلك الألحان التي لم تسجل، وتحدثت ـ إن كنت أتذكر بصورة صحيحة ـ عن طبيعتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العلوية. مما يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأنها لم تكن تشبه القصائد، ولا الإشراقات. ربما كانت شيئاً آخر... شيئاً آخر، وهبنا إياه بيتهوفن في رباعياته الأخيرة. إنه لم يفقد لمسة «المعلم»، كان في احتضاره حتى أكثر عبقرية منه في شبابه. إنها الآن بُحراناتٌ ليس لجمل متصادمة متنافرة، وإنما لجوهريات وخلاصات اكتسبت في الصراع مع أكثر الشياطين قسوة، على الإطلاق: الحياة. الخبرة والمخيلة تتحدان لتشكلا أغنية، هي عطاء. لا لعنة أو شتيمة. إنها لم تعد (أغنيته)، لم تعد (علامته). لقد طوقت الذات، وغدت الأغنية والآلة، واحدة. إنها القربان على مذبح الكبرياء المنزلة عن عرشها. إنها عودة الروح.

لم يعد الخلق غطرسة، أو تحدياً، أو غروراً... بل هو لعب. إنه يستطيع الآن اللعب، على فراش الموت، كما يستطيع الصلاة، فلقد انتهى عمله كمعذب. لقد تهشمت عارضة سفينته أخيراً، وهو الآن ماض إلى البحر. ربما أدرك في هذه الساعات الأخيرة غاية الكدح البشري، أدرك أن هذا الكدح عبودية حين يرتبط بالأهداف العمياء الجشعة، وأنه فرح حين يكون في خدمة الجنس البشري.

لا فرح كفرح الخالق، لأن الخلق ليس له هدف آخر غير الخلق قال رامبو: «لنجعل أصابعنا صافية، أي، كل نقاط اتصالنا بالعالم الخارجي». وبالمعنى نفسه، صفّى الله أصابعه ـ حين سما بالإنسان إلى مستوى الخلق. إن هزّة الخلق ماثلة في كل إبداع.

الجميع، من الملائكة حتى الديدان تجاهد من أجل الاتصال بما هو فوقها، وما هو دونها، لا تعب يضيع، ولا موسيقى تتبدد بدون أن تسمع. لكن، في كل إساءة استعمال للقدرة، لا يُجرح الله وحده، وإنما الخليقة ذاتها تتوقف، ويؤجل «عيد ميلاد على الأرض» أجلاً طويلاً.

«آه... لن أحزن بعدُ:

فهو يملأ حياتي.

سلاماً له كل مرةً

يغني فيها الديك الغاليّ».

إنني أعرض هذين البيتين المزدوجين، عامداً، بنفس الروح التي ترجمت فيها خطأ كلمة «هو il» باعتبارها الله. ولا استطيع إلا الاعتقاد بأن الانجذاب المقدّر إلى السعادة الذي تحدث عنه رامبو يعني الفرح بعثوره على الله.

«إذن ـ سلاماً له كل مرة».

أسأل نفسي، لماذا أعبد رامبو فوق الكتّاب الآخرين؟

لست شغوفاً بعبادة المراهقة، ولا أقول لنفسي إنه عظيم شأن كتّاب آخرين قد أشير إليهم. لكن شيئاً فيه هزّني أكثر مما فعله شخص آخر. وأتيته عبر ضباب لغة لم أسيطر عليها، البتة! والحق أنني لم أدرك قوة كلماته وجمالها إلا حين حاولت، بكل حماقة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن أترجمه. في رامبو، أرى نفسي، كما لو كنت أنظر في مرآة. ولا أجد أي شيء قاله غريباً عني، مهما كان وحشياً، أو غير معقول، أو عصياً على الفهم. ينبغي أن تستسلم كي تفهم عمل كل شخص ما. وقد قمت بهذا الاستسلام منذ اليوم الأول الذي نظرت فيه إلى عمله. قرأت أبياتاً قليلة ذلك اليوم، قبل عشر سنوات أو نحوها، وأبعدت الكتاب جانباً، بعد أن وجدتني ارتعش كالورقة. وتولّد لدي إحساس آنذاك، وما يزال يلازمني، بأنه قال كل شيء عن عصرنا. بدا لي كما لو أنه نصب خيمة على العراء. كان الكاتب الوحيد الذي قرأته، وأعدت قراءته، بفرح واهتياج عارمين، دائماً، وكنت أكتشف، على الدوام، شيئاً جديداً فيه، وأهتز، بعمله، على الدوام، لطهره. كل ما أقوله عنه، ليس سوى محاولة، ومدخل ـ ليس أكثر من لمحة. إنه الكاتب الوحيد الذي أحسده على عبقريته، أما الآخرون جميعاً، مهما كانوا عظماء، فلن يستثيروا غيرتي. وانتهى في التاسعة عشرة! لو أنني قرأت رامبو في فتوّتي، لما استطعت أن أكتب سطراً أبداً. كم ميمون هو جهلنا أحياناً! قبل التقائي برامبو، كان دوستويفسكي هو الأسمى عندي. وهو سيظل، بمعنى ما، كما سيظل بوذا، أعز لدي، من المسيح. بلغ دوستويفسكي قرارة العمق، وبقي هناك زمناً طويلاً طويلاً، وانبعث إنساناً مكتملاً. أنا أفضل الرجل المكتمل. وإن كان عليّ أن أعيش مرة واحدة على هذه الأرض، فإني أفضل أن أعرف الجحيم،

والمطهر، والفردوس... كلها معاً. مارس رامبو فردوساً، لكنه كان فردوساً لم ينضج بعد، فردوساً مبكراً. ولكن، بسبب هذه الممارسة، كان قادراً على إعطائنا صورة أكثر حيوية عن الجحيم. كانت حياته كرجل ـ مع أنه لم يكن، رجلاً ناضجاً، البتة ـ مطهراً. لكن هذا نصيب معظم الفنانين. ما يسترعي انتباهي، بشكل استثنائي، لدى رامبو، رؤياه للفردوس المستعادة، الفردوس المنتزع. إن هذا، بالطبع، أمر آخر، غير روعة كلماته وسحرها، اللذين أعتبرهما لا يقارنان. لكن ما يقهرني هو حياته، التي تختلف تماماً عن رؤياه. حين أقرأ حياته أشعر بأنني أخفقت، وبأننا جميعاً أخفقنا. آنذاك أعود إلى كلماته ـ فأراها لا تخفق أبداً.

لماذا أعبده، إذن، فوق الكتّاب الآخرين؟ ألأن إخفاقه ذو طبيعة تنويرية؟ ألأنه قاوم حتى النهاية؟ أعترف بأنني أحب كل الرجال المُسمّين متمردين أو فاشلين. أحبهم لأنهم بالغو الإنسانية، إنسانيون جداً.

نحن نعلم أن الله أيضاً يحبهم فوق الآخرين. لماذا؟ ألأنهم أساس إثبات الروح؟ ألأنهم الضحايا! كم تبتهج السماء بعودة الابن الضال! أهو ابتداع من الإنسان أو من الله؟ أعتقد، هنا، أن الإنسان والله يحدقان معاً في بعضهما:

الإنسان إلى الأعلى، واللّه إلى الأسفل. أحياناً تتلامس أصابعهما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حين أشك في من أحب أكثر: أولئك الذي يقاومون، أو أولئك الذين يستسلمون؟ أعلم أنهم واحد، وأنهم هم أنفسهم. ثمة أمر أكيد، هو أن الله لا يريدنا أن نأتي إليه أبرياء. علينا أن نعرف الخطيئة والشر، أن نضل عن السبيل، أن نتيه، أن نكون جريئين ومستميتين: علينا أن نقاوم ما دمنا قادرين على المقاومة، حتى يكون استسلامنا كاملاً وقانطاً. امتيازنا كأرواح حرة، أن ننتخب اللّه، مفتوحي العيون، متدفقي الأفئدة برغبة أعظم من كل الرغبات. البريء! ليس عند اللّه من فائدة له. إنه الشخص الذي «يلعب بالفردوس إلى الأبد». إن امتياز الإنسان، هو أن يكون أكثر وعياً، أكثر إفعاماً بالمعرفة، أكثر إثقالاً بالذنب.

ليس من احد بلا ذنب. ومهما كانت درجة المرء، فإنه يواجه مسؤولية جديدة، وخطايا جديدة. إن الله بتحطيمه براءة الإنسان، يحوله إلى حليف قوي. لقد منحه قوة الاختيار، من خلال العقل والإرادة. والإنسان، في حكمته، يختار الله دائماً.

لقد تحدثت سابقاً عن استعدادات رامبو لحياة جديدة، وأعني بالطبع الحياة الروحية. وأود أن أضيف شيئاً إلى ما أسلفت... أود أن أقول إن استعداداته تلك، ليست فقط غير كافية، ومن النوع المغلوط، بل إنه هو كان ضحية سوء فهم خطير لطبيعة دوره. لو أنه واجه معلماً لما جعل من نفسه شهيداً. كان مستعداً لمغامرة غير التي مارسها. وبتعبير آخر، لم يكن مستعداً، وكما يقول المثل: إذا

كان التلميذ مستعداً فالمعلم دائماً هناك. لكن المشكلة أنه لم يكن ليعترف «لا بمعلم ولا بإله». كان في أشد الحاجة إلى العون، إلا أنه كان جامح الكبرياء. وبدلاً من أن يتواضع، وينحني، كان يرمي نفسه إلى الكلاب. إن استطاعته البقاء سليماً فقط بالتخلي عن دعوته، تجعلنا نقدر طهره، لكنها تجعلنا ندين عصره، أيضاً. أفكر بـ«بوهم» الذي كان كادحاً، ويمكن القول إنه كان بلا لغة، لكنه صاغ أغنيته لنفسه، وبنفسه، ومع أنها قد تكون محيرة مربكة لغير المطلع على الأوليات، إلا أنها بلّغت العالم رسالته. قد يقال، بالطبع، إن رامبو بإخراسه صوته عامداً، نجح في التبليغ. لكن هذا لم يكن قصد رامبو. لقد احتقر العالم الذي أراد أن يهلل له، وأنكر أن لعمله أي قيمة. لكن لهذا معنى واحد فقط ـ أنه أراد لعمله قيمة سطحية! لو أردنا الغوص أعمق في فعل الإنكار هذا، لقارناه بفعل المسيح، وقلنا إنه اختار الاستشهاد، ليمنحه مغزى خالداً. لكن رامبو اختار بلا وعي، وأولئك الذين كانوا بحاجة إليه، والذين كانوا يبغضونه... هم الذين وهبوا عمله وحياته، معنى لقد نفض رامبو يديه ببساطة. لم يكن متهيئاً لتحمل مسؤولية كلماته، عارفاً أنه لن يقبل بقيمة سطحية.

ليس غريباً أن تلتمع في القرن التاسع عشر شخصيات شيطانية. ليفكر المرء فقط بـ: بليك، دي نرفال، كير كجارد، لوتريامون، سترندبرغ، نيتشه، دوستويفسكي ـ كل الشخصيات المأساوية...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المأساوية بمعنى جديدة. كانوا جميعاً مهتمين بمشكلة النفس، باتساع الوعي، وبإبداع قيم أخلاقية جديدة. في محور هذا الدولاب الذي يلقي بنوره على العراء ينتصب بليك ونيتشه مثل نجمين توأمين ساطعين... إن رسالتهما ما تزال اليوم جديدة، حتى لنظنهما مجنونين[1]. نيتشه يعيد ترتيب كل القيم الموجودة، وبليك يبتدع كوزمولوجيا جديدة. إن رامبو قريب من الاثنين في نواح عديدة. إنه مثل نجم يبزغ فجأة، ثم يتضخم في سطوع مرعب، ثم يهوي إلى الأرض. «أحيا، شرارة ذهبية من نور الطبيعة». في ظلمة الرحم التي بحث عنها بنفس العنف الذي تشوف فيه إلى نور السماء، يتحول إلى راديوم. إن معدنه جوهر، في ملامسته الخطر. ضوء يبيد إن لم يشع ويتألق. كان مثل نجم يحوم قريباً جداً من مدار الأرض.

كان غيرمكتف بإرسال ألقه على الأرض. بل منجذباً بقوة قدرية إلى انعكاس صورته في المرآة للحياة. أراد أن يحول نوره إلى قوة مشعة. هذا الوهم الذي يسميه جهلاً، لا خطيئة، يزيد الارتباك بين ميداني الفن والحياة، هذا الارتباك الذي أمسك برجال القرن التاسع عشر. لقد ناضلت كل الأرواح العظيمة في العصر الحديث للتحرر من هذا الأسر. فأبادتهم جميعاً صواعق جبارة. كان مثل من اكتشف

---

(١) «لنكن سعداء! أنا الرب، وقد صنعت هذا الكاريكاتور». «نيتشه، من مصح الأمراض العقلية».

الكهرباء، وجهل كل ما يتعلق بالعزل. كانوا متساوقين مع قوة جديدة تشق طريقها، لكن تجاربهم قادتهم إلى الدمار.

كل هؤلاء الرجال، ورامبو منهم، كانوا مكتشفين، مشرعين، محاربين. أنبياء. وصادف أنهم أصبحوا شعراء. إن مواهبهم الخارقة، وحقيقة عدم نضوج عصرهم لمجيئهم، معاً، كانت السبب في خلق جو الإخفاق والإحباط.

كانوا، بمعنى أعمق مغتصبين، وذكرنا مصيرهم بعذاب أبطال المسرحيات الإغريقية. كانت الأرواح المنتقمة تطاردهم وتحط من قدرهم، هذه الأرواح المنتقمة، هي الحماقات، بتعبيرنا الحديث. هذا هو الثمن الذي يدفعه الإنسان حين يحاول الارتفاع بالمستوى السحري لآلهته، حين يحاول العيش متوافقاً مع القواعد الجديدة، قبل أن يثبت الآلهة الجدد أقدامهم. هذه الآلهة، هي ـ بالطبع ـ انعكاس قوى الإنسان الداخلية وهي تتسامى. إنها تمثل العنصر السحري في الخلق، وهي تعمي وتسكر، لأنها تمزق الظلام الذي بزغت منه. وقد عبر بودلير عن المسألة، من أعماق تجربته المُرّة، حين قال: «ممنوع على الإنسان، تحت طائلة تشويه السمعة والموت المعنوي، أن يخل بالشروط الأولية لوجوده، وأن يفسد توازن قواه مع الأوساط المقدرة لها أن تهزها قواه. ممنوع على الإنسان أن يخل بمصيره ليستبدل به، قدر جنس جديد...).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

باختصار، على الحالم أن يرضى بأنه يحلم، واثقاً من أن (المخيلة تصنع الجوهر). هذه هي وظيفة الشاعر. وهي الأسمى، لأنها تبلغه المجهول ـ تبلغه حدود الخلق. المعلمون هم أبعد من سلطان الإبداع؛ فهم يعملون في النور الأبيض الطاهر للكينونة. لقد انتهوا من الصيرورة، وامتزجوا بقلب الخلق، كاملي التحقق كرجال، ومتألقين بتوهج الجوهر السماوي. لقد بلغوا من تجلي النفوس مرتبة، ليس عليهم فيها إلا أن يشعوا ألوهيتهم.

الصفوة، باعتباره مَهَرة، يجدون مأواهم أينما حلوا. إنهم يعرفون معنى الجحيم، لكنهم لا يستطيعون تحديد مكانه، حتى كوجود أرضي. إنهم يستمتعون بالفواصل بين حالة وجود وأخرى. أما الأرواح الحرة، المعذبة ـ المولودة خارج الزمن والوتيرة ـ فلا تستطيع تفسير حالاتها الوسيطة، إلا بأنها الجحيم ذاته. كان رامبو من هذه الأرواح. أما الضجر الموجع الذي عاناه فقد كان انعكاساً للفراغ الذي عاش فيه ـ الفراغ غير المادي، سواء كان من خلق رامبو أم لم يكن. ثمة شيء واحد واضح بهذا الخصوص: لم يستطع أن يستعمل قواه. إنها حقيقة جزئية، بالتأكيد، لكن هذا الجانب من الحقيقة هو الذي يهم المثقف. إنها ـ بتعبير آخر ـ الحقيقة التاريخية. والتاريخ يميل أكثر فأكثر إلى أن يعرف باعتباره قدر الإنسان.

بين الحين والآخر، ومن نهر الحياة العميق الخفي، تصّاعد

أرواح عظمى في هيئة البشر، ومثل إشارات النور في الليل، تنذر بالخطر المقبل... لكن نداءها لا يلقى الإصغاء من أولئك «المنبوذين، لكن الذين ما يزالون يوقدون قاطرات» (أرواح العصر المزيفة) «تتشبث بالسكة إلى حين». يقول رامبو إن ثقافة هذه الأرواح بدأت بالمصادفات. في هذا الجو من المصادفة والكارثة الذي يتجاوز المستوى التاريخي للتأويل، نجد الشخصيات الشيطانية، المسكونة بالتوق إلى البعيد، هم الخفراء الذين يبرزون بغتة، في أحلك ساعات الليل. وقوتهم هو الصوت الذي لا يبالي.

مستنقعات الثقافة الغربية التي تنتظر القطارات الفاخرة الخارجة عن قضبانها، حيث تجلس أرواحنا الغبية تغزل أقوالها المأثورة، هذه المستنقعات، وصفها رامبو، وصفاً بارعاً.«أرى أن انزعاجاتي هي بسبب فشلي في أن أفهم بالسرعة اللازمة أننا من العالم الغربي. مستنقعات الغرب!».

بين الحين والآخر، خلال مكثه في الأعماق السفلى، يلاحظ، كما لو انه يتقلب في نومه ـ «ها هي ذي الحياة ثانية!» نعم... إنها لحياة. لا خطأ في الأمر. لكنها، فقط، الوجه الثاني من العملة. أما هو، فمهما سخر من الحياة، إلا أنه يجب أن ينتهي منها، يجب أن يراها بأسرها. ليس ثمة حياة أخرى له... لقد اختارها مما وراء القبر. كل عناصر شخصيته رُسمت عند ميلاده. وهي ستمنح مصيره الطابع الفريد لعذابه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولسوف يعاني، ليس فقط بسبب أن والديه أرادا ذلك، سوف يعاني بسبب كامل مسيرة التطور التي مرت بها الروح البشرية. سوف يعاني، بالضبط، لأن الروح البشرية، في المخاض، سوف يعاني، معاناة البذرة تسقط في تربة عقيم.

لِمَ يبدو النصف الثاني من حياته، في ضوء هذه التأملات ـ أكثر غموضاً وإلغازاً، من النصف الأول؟ ألا تقرر شخصية المرء، مصيره؟ نحن نصير ما نحن. وكل ما عدا ذلك لعبة الصدفة. المصادفات السعيدة، وحوادث الحظ الغريبة، لها معنى رفيع. الإنسان متساوق مع نفسه دائماً، حتى حين يرتكب فجأة، جريمة فظيعة، في لحظة غير متوقعة من حياة جديرة بالثناء.

وغالباً ما يرتكب الشخص الفاضل أكثر الجرائم مبعثة على الاشمئزاز. ينبه رامبو، ويكرر التنبيه، إلى سماته السيئة. والحق أنه يؤكدها. حين تحدثت سابقاً عن النصف الأخير من حياته، واعتبرته متشابها لكالفاري، كنت أعني أنه أطلق العنان لحوافزه. لقد صلب رامبو، ليس بسبب خصائصه الاستثنائية، التي كان باستطاعتها أن تجعله يتحمل أي محكمة تعذيب، وإنما بسبب استسلامه إلى غرائزه. وقد كان هذا الاستسلام يعني عند رامبو التنازل: الجياد الجامحة تتولى أمر العنان. يا للعمل المطلوب الآن للعثور على الطريق المستقيم! أحياناً، يبدو رامبو وكأنه رجل غير مختلف كثيراً باعتباره رجلاً سائباً. ما يزال الشاعر يستطيع تمييز نفسه، ولو في

الطابع الشاذ لتصرفاته. تتبع الأماكن التي سمح لنفسه بأن تنجذب إليها! إنه مبحر، عائد في كل ميناء أوروبي، متجه الآن هنا، متجه ألأن هناك ـ قبرص، النروج، مصر، جاوة، الجزيرة العربية، الحبشة. فكر بمتابعته، ودراساته، وآماله! كلها تحمل علامة «غريبة». إن مشاريعه جريئة وطريفة، مثل تحليقاته الشعرية. وحياته ما كانت مملة، مهما بدت له كئيبة مؤلمة... كان أواسط العمر، هكذا يفكر الموظف. نعم... إن عديداً من المواطنين الوقورين، دع عنك الشعراء، مستعدون للتضحية بذراع أو بساق، كي يقلدوا حياة رامبو المغامرة. الباثولوجي قد يسمي الأمر «جنون التنقل»، لكنه النعيم بالنسبة للمقيم. والأمر عند الفرنسي الذي يتعهد بستانه، جنون خالص أيضاً. كانت مرعبة حتماً، تلك الدورة حول العالم بمعدة خاوية. وربما بدت أكثر جنوناً، وإرعاباً، حين عرف الناس أنه أصيب بالدوزنتاري، بسبب أنه كان يحمل دائماً في همیانه مبلغ أربعين ألف فرنك ذهباً. كل ما فعله كان شاذاً، خارقاً، عجيباً، كان تطوافه مشتبك ألوان لا ينقطع. صحيح أن هناك عناصر العاطفة والخيال التي نحبها في كتابته، لكن ثمة برود في أفعاله، تماماً، مثل ذلك البرود في تصرفه شاعراً. حتى في شعره... النار الباردة، ذلك النور بلا دفء. كان هذا البرود عنصراً اتسمت به أمه، وزادته عنده بتصرفاتها إزاءه، كان رامبو في نظرها، الشخص الذي لا تستطيع توقع ما يصدر منه، والألوهية الكئيبة لزواج بلا حب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليجهد نفسه ما يشاء، بغية التحرر من المدار الأبوي... فليجدنها هناك، مستعيدة إياه، مثل حجر المغناطيس.

إنه يستطيع تحرير نفسه من متطلبات العالم الأدبي، لا من أمه، البتة. كانت مثل نجمة سوداء تجذبه. لمَ لم ينسها، تماماً، كما نسي آخرين؟ واضح أنها صلته بالماضي الذي لا يستطيع منه فكاكاً. وغدت، في الواقع، هي الماضي. كان أبواه أفاقاً، أيضاً، كما يبدو، وأخيراً، بعد ولادة رامبو مباشرة، مضى إلى الأبد. لكن الابن، مهما طوف بعيداً، لن يستطيع الإفلات. لقد حل محل أبيه، ومثل أبيه ظل يزيد تعاسة أمه تعاسة. هكذا نراه يطوف، ويطوف، حتى يبلغ أرض الرعاة «حيث البقر الدرباني يحلم، مدفوناً في العشب حتى مساقط الندى». أنا متأكد من أنه يحلم هناك أيضاً، لكن، أكانت أحلامه عذبة، أو مريرة... ؟ لا احد يعلم. فهو لم يعد يدونها، إنه لا يقدم هنا سوى الملحوظات الهامشية ـ تعليمات، طلبات، شكاوى. هل وصل الحد الذي لم يعد تسجيل أحلامه ضرورياً فيه؟ هل أصبح الفعل هو البديل؟ ستظل هذه الأسئلة قائمة إلى الأبد. كان لا يزال مسكوناً، مدفوعاً. وهو لم يتخل عن مهمة المبدع في أن يتدفأ بالنور. إنه طاقة متدفقة، لكنها ليست طاقة مخلوق «مطمئن القلب».

إذن، أين يكمن اللغز؟ ليس في سلوكه الظاهري، يقيناً. فهو كشخص ذوي نزوات متناغم مع نفسه. ونحن نستطيع تتبعه حتى

حين يحلم بأن يكون له ابن يوماً ما، وأن هذا الابن سيغدو مهندساً!

الفكرة مشوشة قليلاً، لكننا نستطيع ابتلاعها. أتراه لم يهيئنا لنتوقع أي شيء منه؟ أتراه غير إنساني إلى الحد اللازم؟ أليس له الحق في أن يداعب مسائل كالزواج، والأبوة، وما يماثلها؟ أليس من حق الشاعر الذي يستطيع صيد الفيلة، ويكتب إلى أهله يطلب «الدليل النظري والعملي للاستكشاف»، والذي يحلم بكتابة دراسة إلى «الجمعية الجغرافية»... أليس من حقه أن يتمتع بزوجة بيضاء وطفل؟ أي غرابة في هذا؟ يستغرب الناس من أنه كان يعامل عشيقته الحبشية معاملة حسنة. لم لا؟ أعجيب إلى هذا الحد، أن يكون مهذباً، مؤدباً، وحتى مترويا... أن يؤدي بين «آونة وأخرى» عمل خير صغيراً، كما قال؟ لتتذكر خطاب شايلوك!

لكن ما لا نستطيع ابتلاعه، ويقف في حلوقنا، هو تخليه عن الفن. هنا، يأتي «السيد كل الناس»... ها هي ذي جريمته، كما نود أن نقول. نحن قادرون على غفران كل أخطائه، وخطاياه، وتجاوزاته ـ إلا هذه. إنها التحدي الذي لا يغفر... أليس كذلك؟ كم نفضح أنفسنا هنا!

نحن، جميعاً، نحب أن نهرب أحياناً... أليس كذلك؟ نحن نضيق بالأمر كله حد المرض، لكننا نتشبث بأماكننا. نتشبث لأننا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نفتقد الشجاعة والمخيلة اللتين تجعلاننا نفعل ما فعله. نحن لا نبقى في أماكننا إحساساً بالتضامن. لا... فالتضامن أسطورة ـ في هذا العصر، في الأقل. التضامن هو للعبيد الذين ينتظرون، حتى يغدو العالم كله غابة ذئاب هائلة، وآنذاك سيثبون جميعاً، وفي وقت واحد، ليمزقوا وينهشوا، مثل وحوش جشعة.

رامبو كان ذئباً وحيداً. وهو لم ينسل خفية من الباب الخلفي وذيله بين رجليه. لم يفعل شيئاً كهذا، البتة. فقد وضع إبهامه على أنفه، وبسط أصابعه بوجه جبل «ڤارناس» ـ وبوجوه القضاة، والقساوسة، والمعلمين، والنقّاد، والنخاسين، والأغنياء، والمشعوذين، الذين يتألف منهم مجتمعنا الثقافي الشهير. (لا تخدع نفسك فتظن أن عصره كان أسوأ من عصرنا! لا تظن، لحظة، أن هؤلاء التافهين، والحمقى، والضباع، والفارغين على كل مستوى، قد اختفوا!) لا... لم يكن قلقاً من أنه لن يُتقبل... لقد احتقر الحاجات التافهة التي يتوق إليها أكثرنا. كان يرى فيها كلها كومة نتنة، ويرى أن كونه صفراً تاريخياً آخر لن يؤدي به إلى مكان. كان يريد أن يحيا، يريد فضاء أوسع وحرية أكثر.

بينما فتح أزرار سرواله، وبال على الأعمال الأدبية ـ ومن علو شاهق. كما عبر «سلين» مرة.

إن هذا، يا عبيد الحياة الأعزاء، أمر لا يغتفر... أليس كذلك؟ ها هي ذي الجريمة، أليس كذلك؟ حسناً، فلننطق بالحكم.

«رامبو، لقد وُجدت مذنباً. وسوف يقطع رأسك بإتقان، في مكان عام، باسم فناني العالم المتحضر الساخطين». في هذه اللحظة، وأنا أفكر بالبهجة التي تغمر الحشد المندفع لمشاهدة المقصلة، وخاصة حين تكون الضحية «مختارة»، أتذكر كلمات «الغريب» في رواية ألبير كامو ـ وأعرف ما معنى أن تكون روحاً غريباً. كان الإدعاء وضع، للتو، أمام الذين حضروا محاكمة هذا «الوحش» السؤال البلاغي الآتي: «هل عبَّر عن أسفه، حسب؟ أبداً، أيها السادة. لم يحدث مرة واحدة، في مجرى التحقيق دائماً... لا الجريمة ذاتها). وهكذا في هذه النقطة، يستأنف الضحية مناجاته الداخلية.... «وفي هذه اللحظة، استدار نحوي، وأشار إلي بإصبعه، مكملاً اتهامي بما لا أطيق، دون أن أفهم، في الحقيقة الدوافع التي تحمله على ذلك. مما لا شك فيه أنني لم أكن قادراً على منع نفسي من الاعتراف بصواب ما يدلي به. فأنا لم أكن شديد الأسف على ما فعلت، غير أن عناده المتمادي كان يدهشني. ولقد كان بودي أن أشرح له، قلبياً، بل بمحبة، أنني لم أستطع، في يوم من الأيام، أن آسف حقاً، على شيء ما. فقد كنت دوماً مأخوذاً بما سيحدث اليوم او غداً. ولكني، في الحالة التي صرت إليها، لم يكن بإمكاني، طبعاً، أن اتحدث إلى احد، باللهجة التي كنت أتمناها، إذ كنت متجرداً من حق إظهار محبتي، وخلوص نيتي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وإرادتي. ومن جديد، حاولت أن أصغي، لأن المدعي العام راح يتحدث عن روحي»[1].

في الفصل المعنون «خلق الشاعر» من «مهرجان وملائكة»، يضع والاس فولي أصبعه على ذلك الجانب المتفوق من رامبو، الجانب الذي ميزه، والذي يميز، في رأيي، بطولة الشاعر. يقول فولي: «العبقري سيد الصمت وعبده، معاً. إن الشاعر موجود ليس فقط في الكلمات التي يوقعها باسمه، وإنما هو موجود، كذلك، في البياضات التي تظل على الورقة. صدقه سلامته، وقد عاش رامبو سليماً بصورة مجيدة».

ومن المدهش أن نلاحظ كيف استخدم رامبو نفسه كلمة «سليم». «المجرمون يقرفون كالقضاة. أما أنا فسليم، وهذا ما يعادلني» كان يرى القاضي والمجرم، المتمرد والمتواطئ، خاضعين للنير نفسه. والشاعر يعاني القدر نفسه. إنه مصفد، أيضاً؛ روحه غير طليقة، ومخيلته لا تستطيع الانطلاق حرة، لذا يرفض رامبو أن يثور، إنه يتخلى. وكانت الطريقة الأكيدة ـ مع أنه لم يقصدها ـ لجعل تأثيره محسوساً. وقد جعل حضوره محسوساً، بلجوئه إلى صمت حازم. وهو يقترب في هذا، من طريقة

---

(١) هذا النص من «الغريب» مأخوذ ترجمته العربية من مطبعة شركة الكتاب اللبناني سنة ١٩٦٧.

الحكيم[1]. هذا الصمت أكثر فاعلية من إطلاق المدافع. وبدلاً من أن يكون الشاعر صوتاً آخر، يغدو الشاعر الصوت ـ صوت الصمت. عندما تكون في العالم، جزءاً منه، قل مقولتك... ثم أغلق فمك إلى الأبد! لكن... لا تستسلم، لا تنحن! العقاب؟ الطرد. الطرد الذاتي، ما دام المرء رفض، فعلاً، العالم. أهو قدر بهذا الرعب؟ أجل... إلا إذا كان المرء يتطلع إلى ضوء الشهرة. هناك، أيضاً، من يسكن في الصمت والظلام. العالم مكون من ثنائيات، في الميدان الروحي، وفي الميدان الفيزيائي.

والشر له مكانه الفسيح شأن الخير. والظلام كالضياء. الظل والجوهر دائماً. فجر العالم، بالنسبة لرجل الله، هو المكان الذي لا يسكنه أحد... لأنه مملكة الاضطراب. في هذه المنطقة وضع نيتشه آلهته الساقطة. «في هذه المملكة لا نتبين الخير ولا الشر. إنها وادي الموت الذي تعبره الروح، الفترة المظلمة التي يفقد فيها الإنسان علاقته بالأكوان. وهي أيضاً، زمن القتلة». لم يعد الرجال ينبضون بالتشوف، إنهم يتدافعون ويتصادمون حقداً وبغضاً.

ولأنهم لا يملكون ما يدعونه، فهم لا يعرفون الصعود.

ولأنهم لا يعرفون التوتر، فهم لا يأتون بغير رد الفعل.

---

(١) ألم يحاول لاو ـ تسي الشيء نفسه؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اعترف إنسان العصر الوسيط بـ«أمير الظلام». واحترم احتراماً صحيحاً قوى الشر. لكن إنسان العصر الوسيط اعترف، أيضاً باللّه.

لذا كانت حياته غنية، مليئة. وبالمقارنة، نجد حياة الإنسان الحديث شاحبة خاوية. إن الرعب الذي يعرفه يتجاوز كل رعب عرفه أهل العصور السالفة، ذلك لأنه يعيش في عالم غير حقيقي، محاطاً بالأشباح. وليست لديه حتى إمكانات الفرح والمخاض، التي كانت متاحة لعبيد العالم القديم. أمسى ضحية فراغه الداخلي هو، أما عذاباته فهي العقم. وقد قدم لنا «أمييل» الذي كان على معرفة جيدة بالعصر، وكان أيضاً «ضحية» له، كشفاً عن «عقم العبقري». «إنه من أكثر التعابير التي يرددها الإنسان خطراً. ومعناه أن النهاية ماثلة».

في حديثي عن النهاية، لا أستطيع إلا استعادة كلمات «أمييل» حين أذكر الاشمئزاز الذي أثارته لديه كتابات «تين». «إنها لا تثير أي شعور، وهي ببساطة وسيلة إعلام. وأتخيل هذا الشيء سيكون أدب المستقبل ـ أدباً على الطريقة الأميركية، مختلفاً اختلافاً كبيراً عن الأدب الإغريقي، يعطينا الجبر بدل الحياة، والصيغة بدل الصورة، وزفير البوتقة بدل الجنون السماوي لأبوللو. ستحل الرؤية الباردة محل مسرات الفكر، وسوف نشهد موت الشعر، مطروداً منبوذاً من قبل العلم».

في حالة المنتحر، لا نهتم إن كان موته سريعاً أو بطيئاً، أو أن عذابه كان شديداً أو هيناً. العمل هو المهم لدينا، لأننا نكون، بغتة، أمام إدراك أن تكون وأن لا تكون، باعتبارهما عملين ـ لا فعلين لازمين! مما يجعل الوجود والموت مترادفين.

للانتحار فعل الانفجار، فهو يهزنا، لحظة، إلى الوعي. ويجعلنا ندرك أننا نحن عميان وموتى. كم هو نموذجي لعصرنا الذي نخره المرض، أن ينظر القانون إلى مثل هذه المحاولات بقسوة منافقة! نحن لا نريد أن يذكرنا احد ما تركناه مشيراً إلينا، إلى الأبد.

كان رامبو المنتحر الحي، وهذا ما لا نطيقه أكثر! لو أنه مات ميتة معقولة في التاسعة عشرة! لكن... لا. لقد ظل انتحاره مديداً، وجعلنا نشهد، خلال حماقة حياة ضائعة، الموت الحي الذي نلحقه بأنفسنا. لقد خطط مجده الخاص، حتى ندرك تفاهة جهودنا، أكثر. وكدح مثل زنجي، حتى نستمتع بحياة العبودية التي تبنيناها. كل الخصال التي أظهرها في سنوات صراعه الثماني عشرة مع الحياة، كانت خصالاً مؤدية، بتعبيرنا اليوم، «إلى النجاح». كان انتصاره أنه حول إلى نجاح، ذلك الإخفاق المرير. إن إقامة ذلك الدليل، تحتاج إلى شجاعة كي نقتدي به. نحن لا نستطيع التغاضي عن فرار واسع من الصفوف، إذ إن الأمر سيضعف معنوياتنا. نحن نريد ضحايا حياة ليرافقونا في تعاستنا. ونحن نعرف بعضنا جيداً،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بل جيدا جداً. نحن نبغض بعضنا. لكننا نستمر في مراعاة التهذيب التقليدي للديدان. ونحاول أن نكون هكذا حتى حين يبيد احدنا الآخر...

كلمات أليفة... أليست كذلك؟ سيعيدها علينا لورنس، وسلين، ومالاكيه، وآخرون. وسوف يشتم الذين يستعملون هذه الكلمات باعتبارهم مرتدين، وآبقين، وفئراناً يهجرون السفينة الغارقة. (كأن الفئران لم تتمتع بذكاء فائق!) لكن السفينة تغرق، ولا جدال في ذلك. حدثنا لورنس عن الأمر في رسائله الحربية، وثانية... سانت اكسوبري في ما كتبه عن «موبي دك» في كتابه الرائع «طيار حربي».

لا شك أننا سائرون إلى النهاية. لكن... أين الفُلك التي ستحملنا عبر الطوفان؟ ومن أي مواد ستُصنع؟ أما عن المختارين للفلك، فلا حاجة إلى القول إنهم يجب أن يكونوا من نسيج غير نسيج الرجال الذين صنعوا هذا العالم. نحن نقترب من النهاية، وإنها لنهاية كارثة هذه التي نواجه.

لم تعد التحذيرات بالكلام تهزنا. الأعمال هي المطلوبة، ربما الأعمال الانتحارية... لكنها الأعمال المفعمة بالمعنى.

كان تخلي رامبو عملاً من هذا النوع. كان خميرة الأدب. فهل سيكون خميرة الحياة؟ أشك في هذا. أشك أن يصد أي شيء، المد الذي يهدد بابتلاعنا. لكن ثمة شيئاً واحداً حققه مجيئه ـ لقد

حول منا أولئك الذين ما يزالون ذوي وجدان، ما يزالون متطلعين نحو المستقبل، إلى «سهام من الحنين إلى الشاطئ الآخر».

* * *

المهم في الموت، بالنسبة للإنسان، أنه يستطيع التمييز بينه وبين الفناء. الإنسان يموت من أجل شيء. إن كان يموت. إن النظام والتناسق اللذين يطلعان من الفوضى الأولى، كما تخبرنا الأساطير، يصهران حيواتنا بغاية بعيدة عنا، غاية نضحي بأنفسنا في سبيلها حين نحقق الإدراك.

وتتم هذه التضحية على مذبح الخلق، ليس شيئاً ما نخلقه باللسان واليد؛ إن ما نخلقه بحيواتنا هو المهم.

نحن لا نبدأ في الحياة، إلا حين نجعل أنفسنا جزءاً من الخلق.

لقد منحنا آكلي الموت، التشريف، لكن ماذا عن الذين يقبلون تحدي الحياة؟ بأي طريقة نشرفهم؟ من إبليس إلى ضد ـ المسيح، يتدفق لهب من الألم ويعانقه. قوة المتمرد، الذي هو الشرير تكمن في صلابته، لكن القوة الحقيقية تكمن في الاستسلام، الذي يسمح للمرء أن يكرس حياته، من خلال الإخلاص، إلى شيء أبعد منه.

القوة الأولى تؤدي إلى العزلة، التي هي إخصاء. بينما تؤدي القوة الثانية إلى التوحيد، الذي هو خصب دائم.

لكن للألم سببه، دائماً، وقد بلغ ألم الخالق قمته، في ألم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مسيح جسد العذاب البشري كله. ألم الشاعر نتيجة لرؤياه، ورؤيته الحياة جوهراً، كلاً كاملاً.

لكن، لو تهشمت هذه الرؤية أو اختلت، مرة، فإن الألم ينضب. نحن في ميدان الفن نقترب من نهاية الألم. ومع أننا ما نزال نبرز عمالقة منتجين، إلا أن أعمالهم ترقد مثل شواهد قبور متساقطة بين الآثار الرائعة للأزمنة القديمة، هذه الآثار التي ما تزال، منتصبة، سليمة. المجتمع، بل قدراته، لا يستطيع دعم الفنان، إن كان هذا المجتمع مغلقاً عن رؤية الفنان. والصوت الذي يرتفع، لا مبالياً، بين حين وآخر، سيصمت. وسيكون جواب الفنان على فوضى المجتمع: أن يصم أذنيه. وكان رامبو أول من فعل هذا. فسحرنا مثاله. علينا ألا نبحث عن تابعية بين شخصيات عصرنا الأدبية. بل نبحث عنهم بين المتنحين. بين الشباب المرغمين على أن يخنقوا عبقريتهم. لننظر، أول الأمر، إلى بلادنا، أميركا، حيث العبء أثقل. في هذا الشكل الجديد من الاحتجاج، نساعد على تحطيم البيضة. وهذه هي الطريقة الأكيدة لنسف البناء المتداعي لمجتمع مهترئ.

كما أن مفعولها أسرع وأبقى من كل الدمار الذي تجلبه القلاع الجبارة. إن كان الشاعر، لا يجد له مكاناً، أو نصيباً، في ولادة نظام جديد، فعليه أن ينسفه من الأساس. إن هذا ليس تهديداً

خيالياً. إنه فعلي. وهو فاتحة لرقصة موت أكثر رعباً من رقصة القرون الوسطى.

الأرواح الخلاقة الوحيدة في العصر الحديث، هي الكائنات الشيطانية، وفيها يتركز الألم الذي ينضب شيئاً فشيئاً. لقد اكتشف هؤلاء، من جديد، نبع الحياة، تلك الوليمة القديمة التي بحث عنها رامبو، كي يستعيد شهيته، لكن وسائل اتصالاتهم قد قطعت. لم يعد الناس يتصلون ببعضهم، هذه هي مأساة العصر الحديث.

منذ وقت طويل. لم يعد المجتمع مجموعة، لقد تهشم إلى تجمعات لذرات عاجزة. والأمر الوحيد الذي يستطيع توحيدها ـ حضور الله وعبادته ـ غائب.

حين كتب رامبو، بالطباشير على أبواب الكنائس، وهو لا يزال في أول فتوته: «يسقط الله!»، أثبت أنه أقرب إلى الله من القوى التي تتحكم بالكنيسة.

لم تكن غطرسته وتحدياته موجهة، البتة، ضد الفقراء، والمنكودين، والمؤمنين حقاً، كان يكافح المغتصبين والمدعين، يكافح كل ما هو زائف، وباطل، ومنافق، ومدمر للحياة. كان يريد أن تعود الأرض فردوساً، مثلما كانت، ومثلما هي ما تزال... خلف حجاب الوهم والضلال. لم يكن مهتماً، أبداً بفردوس أشباح، واقع في ما وراء أسطوري. كان يرى عيد ميلاد الأرض،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الآن هنا، مجسداً، حيث الناس أعضاء في مجموعة عظمى، متفقة بنار الحياة. علينا أن نموت كي نحيا، هذه ليست كلماته، لكنه معناها له. يكمن الموت في الانفصال، في عيشنا مبتعدين عن بعضنا. وهو لا يعني مجرد التوقف عن الكينونة. إن حياة غير ذات مغزى، اليوم، لن تكون ذات مغزى، فيما بعد. وأعتقد أن رامبو قد فهم هذا الأمر، بوضوح. كان تخليه، بهذا المعنى، إصراراً. لقد أدرك أن مقومات الفن لا يمكن أن يعاد بناؤها، إلا في الصمت والعتمة. وتتبع قوانين كينونته حتى النهاية محطماً كل الأشكال، ومنه أشكاله هو، منذ أوائل بدايته في المهنة، فهم ما لم يفهمه الآخرون إلا في النهاية... هذا إن كانوا فهموا، أساساً ـ فهم أن الكلمة المقدسة لم تعد شرعية. أدرك أن سم الثقافة قد مسخ الجمال والصدق إلى تصنع وخداع. أجلس الجمال على ركبتيه ووجده مراً، فهجره، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي لا تزال عنده، كي يمجد الجمال. ماذا قال أيضاً في أعماق الجحيم؟

«أخطاء يهمس لي بها، شعوذات عطور مزيفة، أنغام صبيانية».

ـ في رأيي أن هذا البيت هو أكثر أبيات «فصل» كابوسية وإرباكاً ـ.

عندما تباهى رامبو بأنه يمتلك كل المواهب، كان يعني ـ على هذا المستوى التافه! أو ـ بهذا القناع الثقافي الكاذب. وكان في هذا الميدان، بالطبع، معلماً. لكنه ميدان الاضطراب حيث أي شيء له

القيمة نفسها... شأن الأشياء الأخرى، أي لا قيمة له. أتريدني أن أطلق الصفير؟ أتريد رقصة مغامرة؟ حسناً. أي شيء تريد؟ أطلب فقط! كل ما عبر عنه رامبو في كتاباته يعلن هذه الحقيقة، وهي «أننا لا نعيش وسط الوقائع، وإنما وسط الأعماق والرموز». السر الذي يتخلل كتابته يخترق حياته. نحن لا نستطيع شرح أفعاله، نستطيع، فقط، أن نسمح لها بكشف ما نريد معرفته. كان سراً لنفسه، مثلما كان سراً للآخرين، غامضاً في ما يقول، مثلما هو غامض في حياته اللاحقة على وجه الأرض. كان يرى في العالم الخارجي ملجأ، ملجأ... مم؟ ربما من رعب الوضوح. إنه مثل قديس بالمقلوب. لديه، يأتي النور أولاً، ثم معرفة الخطيئة وتجربتها. كانت الخطيئة بالنسبة له سراً ينبغي أن يرتديه، كما كان يرتدي التوّابون القدامى، قميص الصوف.

نقول إنه هرب بعيداً. لكنه... ربما هرب من اجل شيء ما.

والواضح أنه تجنب نوعاً من الجنون، ليقع ضحية نوع آخر. وما إن يتجنب مأساة، حتى يواجه أخرى. إنه شخص مستهدف. و«هم» وراءه.

إن تحليقاته الشعرية التي تشبه مراحل متعاقبة في بُحران متقطع، هي مثل تحليقاته المجنونة التي كانت تدفعه من ركن في العالم، إلى ركن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكم من مرة جيء به مسحوقاً مهيضاً.

كان يستريح، فقط للمدة التي يستعيد فيها قواه، ويرمم نفسه، مثل سفينة حربية، أو قاذفة قنابل بعيدة المدى. ها هوذا جاهز للعمل ثانية. زوم! وها هو ذا يطير، محلقاً نحو الشمس!

إنه يبحث عن النور ـ والدفء البشري. يبدو أن إشراقاته قد أنضبت منه كل دفء طبيعي، إن في دمه ذوبان جليد.

لكن... كلما حلق أبعد... أحاط به الظلام أكثر.

الأرض مغلفة بالدم والظلام.

وجبال الجليد تتجه إلى القلب.

يبدو أن قدره، أن يمتلك أجنحة، ويبقى مغلولاً إلى الأرض.

إنه يجهد من أجل أن يبلغ أقصى النجوم، ليجد نفسه مولولاً في الوحل، والحق أنه كلما خفق بجناحيه أكثر، وجد نفسه، سجين الأرض، بصورة أعمق. النار والهواء، فيه، كانا يتقاتلان مع الماء والتراب. إنه نسر مغلول إلى صخرة. والطيور الصغيرة هي التي تنهش قلبه.

زمانه لم يأت بعد. كانت مبكرة جداً تلك الرؤية من عيد ميلاد على الأرض! مبكر جداً ذلك الأمل بمحو الآلهة الزائفة، والخرافات الفظة، والأدوية الرخيصة. على أهل الأرض أن يمروا بفترة مخاض بالغة الطول، قبل أن يكونوا في النور الناصع للفجر.

الفجر كلمة حبلى به... ويبدو أن رامبو فهم المسألة في قلبه. لمَ لا نفسر رغبته العارمة في الحرية ـ رغبة المحكوم بالهلاك! ـ بأنها أمنية خلاصة الشخص؟[1] إنه يتكلم باسم بني آدم الذي عرف الحياة الأبدية، لكنه استبدل بها المعرفة التي هي الموت.

حماسته الوثنية اتقاد روح تتذكر أصولها. وهو لا يتطلع إلى عودة الطبيعة، على طريقة روسو. الأمر أبعد من هذا كثيراً. إنه ينشد الرحمة. ولو أنه كان قادراً على أن يؤمن، لأسلم نفسه منذ زمن.

كان قلبه هو المشلول. وتلك الأحاديث التي كان يعقدها مع شقيقته في المستشفى لم تكن لتستأنف فقط السؤال الذي أبقاه متوتراً طيلة حياته، وإنما البحث أيضاً. شقيقته تؤمن إيماناً مخلصاً تماماً... لم لا يستطيع هو؟ أليسا من الدم نفسه؟ إنه لم يعد يسألها لماذا تؤمن، ـ بل مجرد: أتؤمنين؟ وكانت هذه هي القفزة النهائية التي استجمع لها قواه كلها، إنها القفزة خارج نفسه، وتحطم الأصفاد. لم يعد مهماً الآن بماذا يؤمن. المهم فقط ـ أن يؤمن. في واحد من تبدلات المزاج التي يتصف بها «فصل في الجحيم»، وبعد تفجر يرى فيه أن العقل عاد إليه ثانية، وأنه يرى العالم طيباً، ويبارك الحياة، ويحب بني جنسه، يضيف: «لم تعد هذه وعود

---

(١) يجب أن تكون لي كائنات تشبهني ـ لوتريامون.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أطفال على الإطلاق. ولا رجاء النجاة من الشيخوخة والموت. الله يصنع قوتي. أمجد اللّه». هذا الإله الذي هو قوة الإنسان، ليس إلهاً مسيحياً، ولا إلهاً وثنياً. إنه إله يستطيع بلوغه، كل جنس، وطائفة، وثقافة، إله يمكن أن يوجد في كل مكان، وفي كل زمان، بدون حاجة إلى الوساطة. إنه الخلق نفسه، وسيظل موجوداً، سواء آمن الإنسان أم لم يؤمن به.

لكن الإنسان الأكثر خلقاً، أكثر يقيناً من التعرف على صانعه. أما أولئك الذين يعاندون بصورة أشد، فهم لا يفعلون غير مجرد أنهم يشهدون، أكثر، بوجوده.

إن النضال ضده بطولي كالنضال من أجله. والفرق أن من يناضل ضده يكون ظهره إلى الضياء. فهو يحارب ظله هو. حتى إذا أنهكته لعبة الظل هذه، وخرَّ، أخيراً، ساجداً... كشف الضوء الذي يغمره، البهاء الذي حسبه أشباحاً. هذا هو استسلام الكبرياء والأنانية المطلوب من الجميع، كباراً أو صغاراً.

لا يستحق الشاعر أن يسمي نفسه إلا إذا اعترف لنفسه أنه ليس سوى أداة. «المؤلف، الخالق، الشاعر! هذا الرجل لم يوجد بعد!»، هكذا تحدث رامبو في غرور الشباب. لكنه كان يعلن عن حقيقة عميقة. فالإنسان لا يخلق شيئاً من عنده، وبنفسه. كل شيء قد خلق من قبل، كل شيء قد جرى التنبؤ به... ومع هذا، فهناك

الحرية. حرية أن تنشد مدائح الله. وهي أسمى ما يستطيع الإنسان القيام به، وهو حين يقوم بهذا يتخذ موضعه إلى جانب خالقه. هذا الأمر هو حريته وخلاصه، ما دام السبيل الوحيد، ليقول نعم للحياة. اللّه كتب الموسيقى، واللّه يقود الاوركسترا. ودور الإنسان أن يؤدي موسيقى بجسده. موسيقى سماوية، وإلا فهي متنافرة النغمات.

ما إن نقلت الجثة إلى المنزل، حتى انسلت أم رامبو لتهيِّئ مستلزمات الجنازة. وبأسرع وقت، ووري التراب، جسده الذاوي، المبتور، الذي اخترمته آثار العذابات. وكأن أمه كانت تريد التخلص من الطاعون. وربما طهرت المنزل بالأدخنة، بعد عودتها من المقبرة، حيث سارت هي وشقيقته إيزابيل وراء النعش. كانت الاثنتان، وحدهما، مشيعيه.

بعد أن «تخلصت» من العبقري، تستطيع السيدة رامبو الآن التفرغ بسلام، إلى الحيوانات والخضروات، إلى المدارات التافهة لحياتها الريفية التافهة.

أي أم هذه! أي تجسد للغباء، والتعصب، والغطرسة، والعناد! كلما كان العبقري الموجع يهدد بإلقاء نفسه في الجحيم، وكلما رأت روحه المعذبة تذوي، كانت هناك بمذراتها، تطعنه أو تصب شيئاً من الزيت المحرق على جراحه. هي التي دفعته إلى العالم،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهي التي أنكرته، وغدرت به، واضطهدته. وهي التي حرمته حتى مما يتوق له كل فرنسي: فرح أن تكون له جنازة جيدة.

بعد أن أسلم الجسد أخيراً إلى الديدان، عاد رامبو إلى مملكة الموت، حيث يبحث هناك عن أمه الحقيقية. لم يعرف في الحياة إلا هذا الساحرة الشريرة، هذه العجوز المشاكسة التي قفز من حقويها، مثل ترس ساعة ضائع.

ثورته، على طغيانها وغبائها، قادته إلى العزلة. وبعد أن شوهت طبيعته الحنون تشويهاً تاماً، أمسى عاجزاً، إلى الأبد، عن منح الحب أو تلقيه. لم يعرف إلا كيف يواجه إرادته بإرادة. وفي أفضل الأحوال عرف الشفقة، لا الحب.

في شبابه نراه المتحمس المتعصب. لا مساومة. المتحول المباغت، فقط، وكثوري، كان يبحث، مستميتاً، عن مجتمع مثالي يستطيع أن يرقأ جرحه فيه. ذلك الجرح المميت الذي لم يبرأ منه، أبداً. أضحى مستبداً، إذ لم يستطع شيء أن يمتد جسراً على الفراغ بين الواقع والمثال، سوى كمال يتلاشى فيه الخطأ والزيف. الكمال وحده هو المستطيع إزالة ذكرى جرح تجري أعمق من نهر الحياة.

ولأنه كان غير قادر على التكيف والاندماج، فقد ظل يبحث بلا نهاية ـ كي يكتشف، فقط، أن البرء ليس هنا، ليس هناك، ليس

هذا، ليس ذاك. تعلم ليسيَّة كل شيء. وظل تحديه الشيء الإيجابي الوحيد في فراغ النفي الذي يتخبط فيه. لكن التحدي غير مثمر؛ فهو يستنفد القوة الداخلية.

هذا النفي يبدأ وينتهي، بعالم المخلوقات، بتلك التجارب التي لا تُعلّم شيئاً. ومهما كانت تجربته الحياتية واسعة، إلا أنها لم تمض في العمق إلى الحد الذي يجعله يمنحها معنى. ذهبت العارضة، والمرساة، معاً. وحكم عليه بالانحراف. لذا فإن السفينة التي ظلت تصطدم بكل نتوء وماء ضحضاح، والتي تستسلم، عاجزة، أمام هبة كل عاصفة، يجب أن تتحطم أخيراً، وتغدو حطاماً طافياً. على من يبحر في بحر الحياة، أن يغدو ملاحاً، أن يتعلم التعامل مع الريح والموج، بالقوانين والمقاييس. إن كولومبس لا يهزأ بالقوانين، لكنه يمنحها امتداداً، ولا هو يبحر نحو عالم خيالي. إنه يكتشف عالماً جديداً، بالمصادفة. لكن هذه المصادفات ثمار شرعية للجسارة. وهذه الجسارة ليست حماقة، وإنما هي نتاج اليقين الداخلي.

العالم الذي بحث عنه رامبو، أيام شبابه، كان عالماً مستحيلاً. وقد ملأه، وأغناه، وجعله نابضاً بالحياة، وغامضاً ـ ليعوض نقص هذه الخصائص في العالم الذي ولد فيه. العالم المستحيل هو العالم الذي لا تسكنه حتى الآلهة. عالم الكرى الذي يطلبه الطفل حين يحرم من صدر الأم. (هنا، قد يحلم البقر الدرباني،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحيوانات شواطئ البحر الميت الغريبة). أما في اليقظة، فلا يمكن الحصول عليه إلا بالهجوم، وهذا أسمه الجنون. الجنون الذي قد يكون رامبو تجنبه، كما يجزم البعض، وراء متاريس الكومونة الدامية. كلنا يعلم أنه أجفل، بغتة، وهو على شفا الكارثة. لكن الأمر ليس ذلك بالتحديد! إنه يتصرف كمن اخترق بنظره، الأكاذيب والأضاليل. لن يكون مغفلاً ومخلب قط، فالثورة فارغة ومقززة، كالحياة اليومية ذات التواطؤ والاستسلام. والمجتمع ليس سوى تجمع أغبياء عجزة، وأوغاد، وأشرار. من هذه اللحظة لن يؤمن إلا بنفسه. وإذا اقتضت الضرورة فسوف يأكل خراءه. وعلى الفور، يبدأ الهروب والتطواف بلا هدف، والانجراف بلا توقف.

وكل تلك الوقائع المزدراة الخسيسة التي ما كان ليقارفها، تغدو خبز يومه. إنها بداية الهبوط، ولا خيط يدله على الخروج من المتاهة المظلمة.

الخلاص الوحيد الذي يعترف به هو الحرية، والحرية بالنسبة له هي الموت كما سوف يكتشف.

لم يصور أحد، مثل رامبو، حقيقة أن حرية الفرد المعزول هي سراب. الفرد المنعتق فقط، هو الذي يعرف الحرية. هذه الحرية منتزعة. إنها تحرير تدريجي، نضال بطيء شاق، تطرد فيه السعالي. السعالي لا تذبح، البتة، فالأشباح حقيقة بمقدار المخاوف التي

تستدعيها. أشار رامبو مرة في «رسالة الرائي» الشهيرة، أنه لكي يعرف المرء نفسه، عليه التخلص من العفاريت التي تسكنه. الكنيسة لم تبتدع هذه المخاوف التي تأخذ العقل والروح، كما أن المجتمع لم يخلق هذه التقييدات التي ترهب المرء وتؤرقه.

كنيسة تهدم، وتُبنى أخرى. نمط مجتمع يزول، ليحل آخر. والمتمردون لا يخلقون سوى أنماط جديدة من الطغيان. وما يعانيه الإنسان فرداً، يعانيه كل الناس، أعضاء في مجتمع. (رأى أبيلا أن اللّه يتألم حتى من موت أرنب).

احتج رامبو في صباه قائلاً: «كل ما عُلمناه زائف»، وكان محقاً، الحق كله، لكن واجبنا على هذه الأرض أن نكافح التعليم الزائف بجلاء الحقيقة التي في داخلنا. ونحن نستطيع تحقيق المعجزات حتى منفردين. لكن المعجزة العظمى أن نوحد كل الناس في طريق التفاهم. والمفتاح هو المحبة. علينا أن نخترق الأكاذيب، والزيف، والضلالات، ونتغلب عليها من خلال الاندماج. هذا المسار يتخذ له اسم التضحية الشاق.

حين أنكر رامبو الحقيقة الداخلية من أجل الحقيقة الخارجية وضع نفسه في أيدي القوى السوداء التي تحكم الأرض. وهو برفضه الانصياع إلى الظروف التي ولد فيها، أسلم نفسه إلى المجرى الراكد. وتوقفت الساعة، فعلاً، بالنسبة له. من الآن سوف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«يقتل الوقت» كما نعبر الآن بدقة لا تصدّق. ومهما كان فعالاً، فالبارومتر لن يسجل إلا الضجر. إن فاعليته لا تؤكد إلا مجرد لا علاقته. إنه جزء من الخواء الذي أراد مرة أن يمد عبره قوس قزح الكمال غير المكين. إن سلّم يعقوب أحلامه، الذي كان يسكنه أهل البشارة، والرسل من عالم آخر: قد ذاب.

وجاءت الأشباح. وأصبحت في الواقع، حقيقية جداً.

لم تعد الأشباح تهاويل خيال، بل قوى تتخذ شكلاً مادياً ذا واقع مُهَلْوَس. لقد استعان بالقوى التي ترفض النفي في عمق الضباب الذي برزت منه. كل شيء مستعار، كل شيء بديل. إنه لم يعد ممثلاً، فهو الآن عامل. في عالم المخيلة يمتلك حرية بلا حد، وفي عالم المخلوقات يمتلك قوة فارغة، وممتلكات فارغة، هو الآن لا يجلس في مجلس الرب، ولا في مجلس اللوردات. إنه في شراك السلطات والإمارات.

لا سلام، ولا توقف عن الكدح. الوحدة والعبودية نصيبه. أيحتاج جيش إلى البنادق؟ سيجهزه ـ بربح، ولا يهمه من يكون الجيش، ولمن ـ سيبيع لكل من يريد أن يقتل. لتقتُلْ، ولتُقتَلْ. الأمر واحد بالنسبة له.

أهناك سوق للرقيق؟ لقد تعامل بالقهوة، والتوابل، والصموغ، وريش النعام، والبنادق... لم يتعامل بالرقيق أيضاً؟ أنه لم يأمر

الناس بقتل بعضهم، ولا بأن يكونوا رقيقاً. لكن ما دام الأمر هكذا، فلسوف يستفيد منه إلى أقصى حد. فبربح جيد، قد يستطيع أن يتقاعد يوماً ما، ويتزوج يتيمة.

ليس ثمة شيء بلغ من النظافة أو القذارة إلى حد لا يستطيع المتاجرة به. ما الذي يهم؟ هذا العالم لم يعد عالم(ه). بالتأكيد. إنه العالم الذي لم يغادره إلا ليعود من الباب الخلفي. كم يبدو كل شيء أليفاً الآن؟ ورائحة العفن تلك... إنها تثير الحنين! حتى الرائحة المتميزة للحم الخيل المحروق ـ أو إنها مختَبأ له ـ أليفة في منخريه.

وهكذا، كما في مرآة معتمة، يقيم الشبح، موالياً رقصته الكريهة، والتي كانت عميقة يوماً، مثل استعراض أمام عينيه. إنه لم يُسئ إلى أحد، ليس هو الذي يسيء. بل لقد حاول حتى أن يفعل خيراً حين يستطيع.

طوال حياته لم ينل إلا الرأس القذر للعصا... فهل يمنع الآن إن حاول الحصول على شيء لنفسه، شيء قليل من المرق الذي يسيل دوماً، لكن، بعيداً عن متناوله؟

هكذا يناجي نفسه في الحبشة. إنها الزرافة البشرية تتحدث إلى نفسها في العشب الطويل للمرج الفسيح. يستطيع الآن أن يسأل:

«Qu'est mon neant au pres de la stupeur qui vous attend? »

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«ما عسى أن يكون عدمي بإزاء الإنشداه الذي ينتظركم؟!!

إن ما جعله متفوقاً هو كونه بلا قلب. ومن المدهش أن رجلاً «بل قلب»، كما اعتاد أن يوقع، يظل لثماني عشرة سنة، يقطع من قلبه ويأكل! لم يفعل بودلير سوى أنه كشف قلبه عارياً، لكن رامبو كان يمزق قلبه ويلتهمه... ببطء.

وهكذا أخذ العالم، يتخذ بالتدرج، شكل زمن اللعنة. الطيور تتهاوى ميتة قبل أن تبلغ الأرض. والوحوش تندفع إلى البحر لتغرق فيه، والعشب يذوي، والبذرة تتعفن. وتتخذ الطبيعة الهيئة القاحلة المشوهة للتعس. والسماوات تعكس خواء الأرض. والشاعر المشمئز من امتطائه صهوة الفرس المتوحشة عبر بحيرات الإسفلت ذي الأبخرة، يحزّ عنقه. إنه يخفق عبثاً بجناحيه البدائيين. الأوبرا الهائلة تنهار، وتهبّ الريح العاوية. والأرض البوار مهجورة إلا من الساحرات الحنقات، ساحرات الأزمنة الغابرة، ومثل زبانية بمذاري... يهجمن عليه. إن ترحيبهن أكثر صدقاً من ذلك الدغل الرؤيوي ذي الجلال [الـ]شيطاني. كل شيء حاضر الآن، لإكمال حفلة الجحيم، التي تمناها، مرة.

في محاولته التغلب على شيطانه (الملاك المتخفي) عاش رامبو حياة لا يتمنى ألد عدو أسوأ منها عقوبة على محاولته (أي رامبو) الإفلات من الصفوف.

ظِل حياته المتخيلة وجوهرها، كلاهما، هما اللذان كانا يمدان جذورهما في البراءة. والميزة العذرية لنفسه، هي التي جعلته غير متكيف، والتي أدت به، بشكل خاص، إلى نوع جديد من الجنون ـ الرغبة في التكيف التام، والمطابقة التامة. إنها الاستبدادية القديمة نفسها، تنفجر من قوقعة النفي.

وثنائية الملاك والشيطان، التي وجد حلها مستحيلاً، قد ثبتت. والحل الوحيد، هو الانحلال عددياً. فعندما رأى أنه لا يستطيع أن يصبح نفسه، فهو يستطيع أن يصبح شخوصاً لا منتهية العدد. وقد عبّر «جاكوب بوهم» عن هذا الأمر، منذ زمن طويل حين قال:

«من يمتْ قبل أن يموت، يتحطم حين يموت». هذا هو القدر الذي يواجه الإنسان الحديث: فهو بتجذره في المجرى، لا يموت، بل ينهار مثل تمثال، ينحلّ، وينتهي إلى اللاشيء».

لكن هناك جانباً آخر، لأرضانية رامبو المبالِغة. إذ إن رغبته في امتلاك الحقيقة جسداً وروحاً، حنين إلى ذلك الفردوس السفليّ الذي سماه بيلك «بولاه». وهي تمثل حالة سموّ الإنسان الكامل وعياً، الذي يكتشف ـ حين يتقبل الجحيم بلا قيد أو شرط ـ فردوساً من خلقه هو. هذه هي قيامة الجسد. وهي تعني أن الإنسان غداً، أخيراً، مسؤولاً عن مصيره. جرَّب رامبو أن يعيد وضع الإنسان على هذه الأرض، بشكل كامل. ورفض الاعتراف بروح

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مخلوقة من الأجساد الميتة. ورفض كذلك الاعتراف بمجتمع مثالي مكّون من أجساد بلا روح، تتلاعب بها مراكزها السياسية أو الاقتصادية.

أما الطاقة المفزعة التي أبداها، طوال مهنته، فقد كانت الروح الخلاّق الذي كان يعمل... من خلاله. إن أنكر الأب والابن فلن ينكر الروح القدس. الخلق هو ما يعبد، والخلق هو ما يمجد.

ومن هذه الحمّى تأتي «الحاجة إلى التدمير»، ملمَعاً إليها أحياناً. وهذا التخريب، ليس تخريباً عامداً، أو ثأرياً... بل هو تعهد الأرض كي تطلع منها براعم جديدة. هدفه كله، أن يمنح الروح مطلق العنان، إن رامبو، برفضه ثانية أن يسمي الإله الحق، أو يعرّفه، أو يحدده، كان يطمح إلى خلق فراغ يمكن لتصوّر اللّه أن يتجذّر فيه. لا يمتلك رامبو ابتذال أو ألفة القسيس الذي يعرف اللّه ويتكلم معه، كل يوم. عرف رامبو أن ثمة لقاء أسمى للروح بالروح. عرف أن المشاركة حوار صامت يتم في صمت كامل، ومهابة، وذلة. وهو، هنا، أقرب إلى العبادة منه إلى التجديف.

كان التنوير لأولئك الذين يطلبون أن يكون الخلاص ذا معنى.

أليست «الأغنية العقلانية للملائكة» متابعة لجهد فوري؟

التأجيل نغمة الشيطان، ومعه مخدّر السهولة.

يكتب رامبو في إحدى رسائله من الحبشة: «كم هو مضجر! ما الذي أفعل هنا؟».

ما الذي أفعل هنا؟ صرخة اليأس هذه تلخص نداء المغلول إلى الأرض.

لاحظ ايدجل ركوورد وهو يتحدث عن سنوات النفي الطويلة التي تنبأ رامبو بها، لنفسه: «الأمر الذي بحث عنه رامبو حين خرج من القوقعة البشرية، الوسائل التي يستطيع بها تعزيز نفسه في وضع الطهر السامي، والتحرر من الوهم الشبيه بالتحرر الإلهي، الذي انبثق فيه».

لكن المرء لن يفلت من هذه القوقعة البشرية، حتى بالجنون. كان رامبو أشبه بالبركان الذي استنفد نيرانه فخمد. ولو أنه انبثق لقضى على نفسه وهو عنفوان مراهقته. إنه لباق هناك، منتصب على القمة، الملك، الشمس، الفتى.

رفضُ البلوغِ هذا يحمل في رأيي، بهاءً مؤثراً.

ماذا يبلغ؟

«ماذا أبلغ؟» نستطيع أن نتخيله يسأل نفسه هذا السؤال.

أيبلغ رجولة تعني العبودية والإخصاء؟

لقد تبرعم بصورة خارقة... لكن... أن يزهر؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تفتُّحُ زهرته يعني التلاشي في الفساد. فاختار أن يموت في البرعم.

إنها الإيماءة العليا للشاب المنتصر.

وسيسمح بأن تُذبح أحلامه، لكن دون أن تُلوّث. كانت لديه لمحة عن الحياة في بهائها وامتلائها، ولن يخون هذه الرؤية بكونه مواطناً مدجّناً في هذا العالم. «هذه الروح الضالة بيننا جميعاً»، هكذا وصف نفسه أكثر من مرة. وحيداً، ومحروماً، أبلغ شبابه حدوده القصوى، وسيطر على هذا الميدان كما لم يسيطر عليه من قبل، بل استنفده. استنفد كل ما نعرف منه، في الأقل.

والجناحان اللذان نبتا له، تعفّنا، في قبر العذراء[1] الذي رفض أن يغادره. إنه ليموّت في رحم كينونته نفسه، طاهراً، سليماً، ولكن في البرزخ، خاصية اللاطبيعي هذه، هي مساهمته المتميزة في ملحمة أفعال الرفض. إن عنصر الكبح (النرجسية) الذي هو جانب آخر من الصورة، يقدم خوفاً أكبر من المخاوف الأخرى كلها ـ فقدان الهوية. هذا التهديد الذي كان يحس به دائماً، حكم على نفسه، بذلك السلوان الذي يئس مرة من الوصول إليه. عالم الحلم يلفه، يخمده، يخنقه: فيغدو مومياء حنطتها وسائله هو.

---

(١) الطور الذي يلي اليرقة من اطوار استحالة الحشرة.

أحب أن أفكر به، باعتباره كولومبس الشباب، والشخص الذي منح امتداداً لحدود هذا الميدان الذي لم يكتشف إلا جزئياً. يقال: ينتهي الشباب حين تبدأ الرجولة. إنها لجملة بلا معنى، فمنذ مطلع التاريخ، لم يتمتع الإنسان تمتعاً كاملاً بشبابه، ولا عرف الإمكانات غير المحدودة للرجولة. كيف يستطيع المرء أن يعرف بهاء شبابه وامتلاءه، إن كانت طاقاته مستهلكة في مكافحة أخطاء الآباء والأسلاف، وزيفهم؟ أعلى الشباب أن يهدر قوّته في الفكاك من قبضة الموت؟ هل رسالة الشباب مقتصرة على التمرد، والتدمير، والاغتيال؟ ألا يقدم الشباب إلا للتضحية؟ ماذا عن أحلام الشباب؟ أمقدر أن ينظر إليها، دوماً، كحماقات؟ أتظل مسكونة بالسعالي وحدها؟

الأحلام هي براعم المخيلة وأغصانها الأولى: ولها الحق في أن تعيش حياة طاهرة أيضاً. اخنقوا أو شوّهوا أحلام الشباب، تحطموا المبدع. وحيث لا شباب حقيقي، فلا رجولة حقيقية.

وان كان المجتمع سيغدو مثل مجموعة مشوهين... أفليس هذا عمل مربينا ومدرسينا؟ اليوم، كما هو الأمر بالأمس، لا يجد الشاب الذي يريد أن يعيش حياته الخاصة، مكاناً يتوجه إليه، ومكاناً يحيا فيه شبابه، إلا إذا ارتدّ إلى شرنقته، وأغلق كل المنافذ، ودفن نفسه حياً، لقد تبدل تبدلاً عميقاً مفهوم أمنا الأرض باعتبارها «بيضة فيها كل الأشياء الطيبة».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فالبيضة الكونية فيها صفار فاسد. هذه هي الصورة الراهنة لأمنا الأرض. لقد تتبع المحللون النفسانيون السم حتى الرحم... لكن لأي نتيجة؟ في ضوء هذا الاكتشاف العميق، سمح لنا بالقفز من بيضة فاسدة إلى أخرى فاسدة.

سواء اعتقدنا بصحة هذا أم لم نعتقد، فالأمر جحيم خالص، صرف. قيل عن رامبو إنه «احتقر أعلى متع العالم». ألا نحبه أكثر لهذا؟ لماذا يزيد صفوفَ الموتى والمتعفنين؟ لماذا ينسِلُ وحوشاً جديدة للنفي واللاجدوى؟ دع المجتمع يسحق جثته المهترئة! لتكن لنا سماء جديدة وأرض جديدة!

كان ذلك معنى ثورة رامبو المستميتة.

مثل كولومبس، أبحر رامبو باحثاً عن طريق جديد إلى الأرض الموعودة. أرض الشباب الموعودة!

في فتوته البائسة تغذى على الكتاب المقدس، وأمثال «روبنسن كروزو» من الكتب التي كانت تقدم إلى الأطفال لقراءتها. وكان الكتاب الذي شغفه أكثر من سواه، بعنوان «الإقامة في الصحراء».

مصادفة فريدة، أن يقيم في الصحراء، حتى وهو طفل، هذه الصحراء التي ستغدو جوهر حياته. أتراه رأى نفسه، حتى في ذلك الزمن البعيد، وحيداً، بعيداً، منقطعاً على صخور الشواطئ، مختلياً عن تمدنه؟!

إن كان أحد يرى بعينه اليمين، وعينه الشمال، فهو رامبو. وأنا أتحدث بالطبع، عن عيون الروح. بإحداهما كانت له القدرة على النظر عبر اللانهاية، وبالأخرى كانت له القدرة على النظر عبر «الزمن والمخلوقات». كما هو وراد في «الكتاب الصغير للحياة الكاملة».

لكن يقال «إن عيني روح الإنسان هاتين، لا تستطيعان القيام بعملهما في وقت واحد. فإذا نظرت العين اليمين في اللانهاية، فعلى العين اليسرى أن تغمض نفسها، وتمتنع عن أداء عملها، كما لو أنها ميتة».

هل أغمض رامبو العين الخطأ؟ وإلا فكيف نفسر فقدانه الذاكرة؟ وتلك الروح الأخرى التي تدرّع بها ليحارب العالم، هل جعلته محصّناً؟ حتى وهو مسلح كالسرطان، لم يكن صالحاً للجنة، ولم يكن صالحاً للجحيم أيضاً. لم يكن يمكنه، في أي ظرف، أو ميدان، أن يرسو طويلاً. كان ينال موضع إبهام، ولا يجد موضع قدم. وكأنما الأرواح الشريرة تطارده، نراه مدفوعاً من طرف قصي إلى آخر.

في بعض النواحي، كان غير فرنسي... قدر ما أمكنه أن يكون.

لكن لا أشد من لا فرنسيته، حين يتعلق الأمر بالشباب.

كان يتسم بالتصرّف الغِرّ لليسار الذي يكرهه الفرنسيون. كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منافياً، مثل محارب من الفايكنج في بلاط لويس الرابع عشر. «خلقُ طبيعة جديدة، وفن جديد، متطابق معها» هما كما قيل، مطمحا رامبو. وفي فرنسا اليوم، نرى هذه الأفكار تماثل في سلامتها والأخذ بها، عبادة صنم بولينيزي. لقد شرح رامبو في رسائله من إفريقيا، كيف يستحيل عليه استئناف حياة الأوروبي.

واعترف حتى بأن لغة أوروبا صارت غريبة عنه. في الفكر والكينونة كان أقرب الى «إيستر آيلاند» منه إلى باريس، أو لندن، أو روما. والطبيعة الوحشية التي أبداها منذ الطفولة، نمت أكثر فأكثر، مع السنوات، وكانت أكثر كشفاً عن نفسها في مساوماته وتنازلاته، ما في تمرده. ظل، دائماً، اللامنتمي. يلعب لعبته وحيداً، محتقراً الطرق والأساليب الملزم بإتباعها. مبدياً رغبته في تطواف العالم متشرداً، لا في الاستيلاء عليه.

وبينما يحلم البقر الدربانيّ، يحلم هو أيضاً. إنه لأمر أكيد، لكننا لا نعلم، فقط، ما هي تلك الأحلام. نحن نسمع فقط عن شكاواه وطلباته، لا عن آماله وصلواته. نعرف احتقاره ومرارته، لا رقته، وحنينه.

نراه منهمكاً بالكثير من التفاصيل العملية، فنظن أنه قد قتل الحالم. أجل، من الممكن أنه خنق أحلامه، ما دامت مبالغة في اندفاعيتها.

من الممكن أيضاً أنه لعب دور سليم العقل بمكر المجنون الخارق ـ خشية الفناء في تلك الآفاق الساطعة التي أشرع أبوابها. ماذا نعرف، فعلياً، عن حياته الداخلية في السنوات الأخيرة؟ لا شيء، عملياً.

لقد انغلق تماماً. وحين يوقظ نفسه، فلمجرد أن يطلق دمدمة، أو أنّةً، أو شتيمة. وبوجه «أناباز» الشباب، وضع «كاتاباز» الشيخوخة.

لا مكان وسطاً ـ باستثناء النضوج الزائف للرجل المتمدن.

المكان الوسط هو، أيضاً، أرض، التقييدات الجبانة.

لا غرابة في أنه رأى القديسين رجالاً أقوياءَ، ورأى النُسّاك فنانين.

فلقد كانت لديهم القوة ليعيشوا بمنأى عن العالم، متحَدّين الجميع، إلا اللّه.

لم يكونوا الديدان التي تنحني وتدبّ... التي تقول «نعم» لكل كذبة، خوف أن تفقد سلامها، أو سلامتها، ولم يتخوفوا من أن يعيشوا حياة جديدة تماماً! مع هذا، لم تكن رغبة رامبو أني عيش بمنأى عن العالم. لقد أحب العالم، حباً نادراً. حيثما اتجه، سبقه خياله، فاتحاً مشاهد مجيدة، تتحول بالطبع، إلى سراب، دائماً. كان لا يهتم إلا بالمجهول. ولم تكن الأرض بالنسبة إليه، موضعاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

محجوزاً للنفوس التائِبة الآسفة التي تخلت عن الروح، بل الأرض كوكب حيّ، نابض، غامض، حيث لو أدرك الناس هذا، فقط، لعاشوا ملوكاً. المسيحية جعلت منها قذىً للعين، ومسيرة التقدم كانت مسيرة ميتة. قلِّبْ وجهك، إذن! ولتبدأ حيث خلّف المشرق بهاءه! واجه الشمس، وابعث بسلامك إلى الأحياء، ومجّد المعجزة!

رأى العالم يستحيل أكذوبة كبرى كالدين، والوطنية مهزلة، والقومية غشا، والتعليم جذاماً، والأخلاق أخلاق آكلي لحوم البشر. بل رمح نافذ كان يطعن عين الثور. لا أَحَدَ أَحَدُّ بصراً، وأصدق هدفاً، من الفتى ذهبي الشعر، ذي السابعة عشرة، والعينين الزرقاوين زرقة زهرة العناقية.

«يسقط الشيوخ! الكل فاسد هنا». إنه يطلق الرصاص يميناً وشمالاً، وما أن يطوّح بهم حتى يواجهوه ثانية، محدّقين فيه. ويفكر مع نفسه:

لا جدوى من رماية الأطباق الطينية. لا... إن مهمة الهدم تتطلب أسلحة أكثر فتكاً. لكن من أين يأتي بها؟ وفي أي ترسانة؟

في هذه اللحظة يتقدّم الشيطان. ويمكن تصور الكلمات التي اختارها...

«استمر في هذا الطريق... لتحلّ في مستشفى المجانين. أتظنك

قادراً على قتل الموتى؟ دع هذا لي، فالموتى هم لحمي. ثم إنك لم تبدأ حتى بأن تحيا».

أنت بمواهبك تستطيع امتلاك العالم إن أردت. أنت متفوق لأنك بلا قلب. لماذا تجرجر نفسك بين هذه الجثث المتعفنة الماشية؟».

وإذا برامبو يقول له: «موافق»، متباهياً أيضاً، بأنه ـ وهو الرجل المعقول ـ لم يسرف في الكلمات. لكنه، خلافاً لفاوست الذي ألهمه، نسي أن يطلب الثمن. وربما لم يكن بذلك الصبر الذي يجعله ينتظر حتى يسمع شروط الصفقة. بل من الممكن تماماً، أنه كان من السذاجة بحيث لم يظن أن هناك صفقة.

ذلك أنه كان بريئاً دائماً، حتى وهو مضيّع. براءته هي التي قادته إلى أن يؤمن بأن هناك أرضاً موعودة، فيها الشباب سيّدٌ. ويظل يؤمن بها، حتى لو ابيضّ شعره. بل لم تكن لديه ـ حتى حين غادر مزرعة روش لآخر مرة ـ فكرة أنه سيموت على سرير مستشفى بمرسيليا... وإنما فكرة الإبحار من جديد إلى بلاد أجنبية. وجهه، دائماً، مستدير نحو الشمس.

«شمس وجسد. وفي الفجر يغني الديك الذهبي». وفي البعيد، مثل سراب متناء أبداً: الدمن الرائعة. وفي السماء شعوب الأرض، تسير وتسير. في كل مكان أوبرات خرافية، أوبراته، وأوبرات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرجال الآخرين: الخلق يفسح المجال للخلق، والتهاليل تتلو التهاليل، ولا نهاية تتبع لا نهاية.

إنه ليس بحلم حشاشين، إنه حلم الرائي.

الخديعة التي حلت به، كانت أفظع خديعة أعرفها. طلب أكثر مما جرؤ عليه أي إنسان، ونال أقل مما يستحق أي إنسان، وبعد أن سحقته المرارة واليأس، تحولت أحلامه إلى ركام. لكن هذه الأحلام، تظل عندنا، طاهرة، نقية، كما في يوم ولادتها. ومن الخراب الذي مرّ به لم تلحقه وصمة.

بياض ناصع، راعش، حيّ... طهّره اللهيب. لقد أسكن نفسه، أكثر من أي شاعر، في ذلك الموضع المعرّض للإصابة: القلب.

في كل ما هو كسيرٌ ـ فكرةً، إيماءةً، فعلاً، سيرةً ـ نرى أمير «الأردين» الأشم.

لترقد روحه بسلام!

الفهرس

١ ـ تمهيد ٥

٢ ـ تناظرات، قرابات، إلتقاءات، أوجاع ١٣

٣ ـ (رحلة الطائر الذهبي) ٤٣

٤ ـ متى لا تعود الملائكة تشبه أنفسها؟ ٨٥

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا الكتاب

كان ذلك عام ١٩٢٧، في القبو الغائر، بمنزل قذر، في بروكلين، حين سمعت للمرة الأولى اسم رامبو. كان عمري ستة وثلاثين عاماً، وكنت في أعماق «فصل الجحيم» المديد، الخاص بي، وثمة كتاب عن رامبو في المنزل، لكني لم أنظر إليه مرة. وكان السبب أني أكره المرأة صاحبة الكتاب، والتي كانت تسكن معنا.

مكتبة بغداد